الفيلسوف الافلاطوني المادوري

لوكيوس آبوليوس

ترجمة وتعليق : أكرم بوعشة

آبولوجيا

APOLOGIA



للنشر والطباعة والتوزيع



الطبعة الأولى 2023

ISBN: 978-9969-5030-8-1

الإيداع القانوني: أكتوبر 2023

صنف العمل: ترجمة وتعليق

العنوان: آبولوجيا

المؤلف: أكرم بوعشة

البلد: الجزائر

السعر: 1200دج

سيفار للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

شارع بن عميمور عبد القادر - حي لاكولون - عنابة

sifar.edition@gmail.com

0674168924 - 0671542763

إهداء

من مادورا إلى أبوليوس، للذكرى والذاكرة!



مقدمة المترجم

أبولوجيا أو 'الدفاع' التي تُبعث من موطن كاتبها باللغة العربية، ترجمة لجزء من المؤلّف الصادر للأستاذ البريطاني هارولد إيدجوورث بوتلر (1878-1951) سنة 1909 بعنوان The Apologia And Florida Of Apuleius Of Madaura من دائرة المنشورات كلارندون لجامعة أوكسفورد ببريطانيا، والذي اعتمد على النص اللاتيني الذي نشره الأستاذ الألماني رودولف هيلم (1872-1966) بعنوان Pro Se De Magia Liber والصادر سنة 1905 من دار نشر Bibliotheca Teubnerian في لايبزيغ بألمانيا. كما يعتبر التعليق المُدرج ثمرة للتعاون مع الأستاذ بوتلر الذي خصّ النص بعديد الملاحظات الهامة، وأحطناه بدورنا بفيض أوسع من المفاهيم والشروح والمصادر لعديد الشخصيات المذكورة والاقتباسات الشهيرة والأحداث التاريخية والأبيات الشعرية والمفاهيم الميثولوجية وعديد النقاط في محاولة منا لتبسيط المفاهيم للقارئ قدر الإمكان، ولذا فإننا لندين بالكثير من الفضل للعمل الذي قدّمه والنقاط التي أشار إليها، وبالشكر على هذه المِنّة التي عبّدت الطريق إلى هذا العمل.

أبولوجيا لم تكن مؤلّفا بحدّ ذاته بل نصّا ألقاه لوكيوس أبوليوس دفاعا عن نفسه من التّهم التي وجّهها إليه أفراد من عائلة بودونتيلا زوجته، وعلى رأسها تهمة استخدام السحر وأشربة المحبّة لدفعِها إلى الزواج منه طمعا في الثروة، وهي تهمة كان مصير من يدان بها الموت وفقا للقانون الروماني في لائحته التاسعة، وقد أشرف على هذه المحاكمة البروقنصل كلوديوس ماكسيموس سنة 159/158م والذي خَلفَ لوليانوس أفيتوس صديق أبوليوس في ولايته على بروقنصلية إفريقيا الرومانية.

تكتسي أبولوجيا أبوليوس ثوب الشرف بين صفحات التراث العالمي، وهي لؤلؤة تعكس وهج التاريخ الحقيقي للأمازيغ في شمال إفريقيا كشعب حضارة وعلمٍ منذ القدم. وإضافة إلى كونها نصا موسوعيا احتفى فيه الفيلسوف المادوري لوكيوس أبوليوس بأسلافه من مدرسة أفلاطون سيّده، وتلامذة فيثاغورس قدوته، وبأرسطو وعشيرته، فهي تعدّ سيرة ذاتية لشخصه خلّد فيها شظايا من حياته ومآثر الكثيرين من أصحاب

الفضل والشرف من فلاسفة وعلماء وسياسيين وأدباء وجنرالات سطّروا تاريخ الإنسانية، ليخطّ بقلمه تاريخا قائما بحدّ ذاته ومصدرا استنار واسترشد به الأكاديميون والدارسون والباحثون والمهتمون بخبايا التاريخ القديم في المدرسة الغربية، من أمثال توماس ويلسون وينتر، جيرالدين هيرتز، بونوا سونس، نيكول فيك، بول فالات، جون بوجو، فانسنت هينينك غيبن، كايت برادلي، ويرنس رايس، ستيفن هاريسون، جيمس ريفس وآخرين أحاطوا هذه الرائعة بالعديد من الدراسات في الكثير من الجوانب. وإننا نبتغي من وراء هذا العمل، والذي سعينا بما أوتينا من جهد لنحيط بكل جوانبه ونفكّك كل زواياه وأسراره بفائق العناية حتى نقدّم للقارئ في المغرب الكبير والوطن العربي مادة فيّاضة بالمفاهيم والقيم، والتي تستحق الدراسة والتمحيص في عديد الجوانب الإنسانية والفلسفية والأنتروبولوجية والتاريخية والقضائية وفي ميدان الفيلولوجيا وعلم الاجتماع وعلم الآثار والكثير من العلوم التي تستند في قوامها إلى مؤلفات سرمديّة من هذا النوع.

أكرم بوعشة

أبوليوس

عالم أمازيغي وفيلسوف أفلاطوني وسيّد بلاغة وأديب ذاع صيته في وقته ونال منزلة بين عظماء الأدب اللاتيني والإغريقي. ولد بمادورا 'مداوروش' في ولاية سوق أهراس بشرق الجزائر واستنادا إلى مصادر عديدة يمكننا تقدير مولده حوالي سنة 124م. أمّا اسمه الكامل فيرجّح أنه لوكيوس أبوليوس نظرا للتعريف المثير لبطل رواية 'ميتامورفوزس' الشهيرة. كانت مادورا مستعمرة رومانية مزدهرة، وعائلته من صفوة أثرياء البلدة وأهمّها شأنا، تولى والده منصب دمفير وترك له ولأخيه ثروة لا تقلّ عن مليوني سيسترس، وهو مبلغ كفله في رحلاته الطويلة ودراساته المستمرة وسخائه الدائم؛ إذ أُرسل لقرطاج في شرخ صباه وحصل على تكوينه الأول في قواعد اللغة والبلاغة والفلسفة الأفلاطونية، وببلوغه سنّ الرشد أتمّ تعليمه في أثينا أين درس الفلسفة والخطابة والهندسة والموسيقى والشعر. وبمغادرتها، شرع في رحلات طويلة قضى خلالها على جزء كبير من ميراثه، إذ يتحدّث عن معبد هيرا في ساموس كشاهد عيان، وعن زيارته إلى هيرابوليس في فريجيا. وبعد عودته من الشرق، قاده القدر إلى كورينثوس أين وقع في براثن كهنة إيزيس وفي سحر تعاليمهم الذي لعب على مزاجه العاطفي وولعه الشديد بالخرافة، حيث قضت رؤيا في أمره بأن يسافر إلى روما ويقضي حولا كاملا يتعبّد في معبد ايزيس بكامبوس مارتيوس، لكن رؤى الليل ما انفكّت تراوده، فباشر بمشورة الكهنة في أسرار أوزيريس، وهكذا وجد نفسه في ضائقة مالية كبيرة، والتي اضطرّته للعمل محاميا في روما لتغطية نفقاته، وهناك تعرّف على أيميليانوس ستړابو وسكيبيو أورفيتوس اللذين يتمتّعان بمكانة بارزة، حيث شاءت الأقدار أن يلتقيا مجددًا عندما أخذتهما مسيرتهما الرسمية إلى إفريقيا كقائمين على تلك المقاطعة. ليعود إلى إفريقيا أين بدأ عصره الذهبي، حيث أقام بين سنوات 155 و156م بأويا (طرابلس الحالية) قبل محاكمته الشهيرة بثلاث سنوات، وبعد زواجه من أرملة ثرية تدعى بودونتيلا، وجد نفسه مطوّقا باتهامات خطيرة، والتي جعل منها فرصة ليبرأ بذمّته وبالفلسفة عن قذف الجهال ويأذن بحظوته الفكرية لا كفيلسوف أفلاطوني فحسب، بل كسيّد للبايديا اللاتينية

والإغريقية، ولكم أن تقضوا بأنفسكم في مصيره بقراءتكم لمرافعته، والتي نضعها اليوم بين أيديكم بعنوان "أبولوجيا" التي تعني "الدفاع" باللغة اليونانية ...

1- لقد كنتُ دريًّا يا ماكسيموس كلوديوس[1] ويا حضرة السادة في مجلسه[2]، فقد كان مقضيًّا أن يملأ سيكينيوس أيميليانوس عريضة اتّهامه بمحض افتراءات لانعدام جنايات، فما تروّى يابس العود وهو ينقاد خلف سفهه المعهود إذ ما فكّر وهو يقتادني لمحكمتك في ما يترتّب عن ذلك. والآن، قد يصبح أيّ شخص متّهَما بحقٍّ أو دونه، لكنه يبقى بريئا حتى تَثبُت إدانته. من هذا المنطلق أندفع بثقة مطلقة بل وبطيب خاطر طالما قُدِّر في هذه الموقعة أن تقضي أنتَ في أمري وأحملَ أنا شرف الفلسفة على عاتقي حتى أربأ بها عن قذف الجُهّال وأُثبت براءتي. ومع ذلك فقد جعلوا هذه الاتهامات الباطلة تبدو لأول وهلة خطيرة في ظاهرها، وبهذا الطابع الغادر الذي ارتجلوه أكثر صعوبة في دحضها، لأنك ستتذكّر أني، بعد أن طوّقني أشياعه بالأراجيف مذ أربعة أو خمسة أيام ومضوا يتّهمونني بممارسة الفنّ الأسود وقتل ابن زوجتي بونتيانوس، ما كنتُ مستعدا للردّ على هذه الحملة وكنتُ مشغولا في الدفاع عن زوجتي بودونتيلا من دعوى رفعها الإخوة غرانيوس[3] ضدّها. فما أن تأكّد لي أنّ هذه الاتّهامات لم تُطرح بروح جادّة بقدر ما كانت تُشبِع نَهمَ خصومي في القذف الجائر، تحدّيتُهم فورا وناشدتُهم مرارا أن يجمعوا

---

[1] كلوديوس ماكسيموس. بروقنصل إفريقيا والذي خَلَفَ لوليانوس أفيتوس والقاضي الرئيسي للمحاكمة. عُيِّن ماكسيموس كقنصل بديل Suffect في 143م أو 144م، أمّا لوليانوس فقد عُيِّن قنصلا سنة 144م أو 145م، ونظرًا لأن فترة تتراوح من عشرة إلى ثلاثة عشر عامًا عادةً ما تنقضي بين فترة قنصل وبروقنصل، يمكننا القول إنّ هيديوس روفيس لوليانوس أفيتوس قد تولى مهمّة بروقنصل في الفترة ما بين 157م-158م تلاه ماكسيموس كلوديوس في 158م- 159م.

- Syme Ronald, Proconsuls d'Afrique Sous Antonin Le Pieux. In: Revue Des Études Anciennes. Tome 61, 1959, N°3-4. pp. 310-319

[2] "حضرة السادة في مجلسه". عند إشراف حاكم المقاطعة على المحاكمة يكون مرفوقا بمجلس استشاري Consilium، جزء منه يُختار من طاقمه سواء مدنيين أو عسكريين، وجزء من المجلس المحلي Conventus Civium Romanorum، كان عدد أعضاء المجلس متغيرًا، ولكن عادة ما يتراوح بين الثمانية والإثني عشر بناءً على مدى تعقيد القضية والمكان الذي أقيمت به المحاكمة ومدى تأثيرها على الرأي العام.

- Harry W. Tajra, The Trial of St. Paul: A Juridical Exegesis of the Second Half of the Acts of the Apostles. Mohr Siebeck, 1989. p. 148.

[3] غرانيوس Granii. جدير بالذكر أنّ هذا اللقب يخصّ والدة السيناتور الروماني لوليوس أوربيكوس المولود بنوميديا، والذي صادف وأن أتى أبوليوس على ذِكره في الفقرة الثانية والثالثة من مرافعته والمفترض أنه كان حاضرا بالجلسة.

- IL. Alg. II. 1, 3563.

في شكوى كل مزاعمهم، وما أن رأى أيميليانوس أنّ المسألة قد أثارت استنفارك يا ماكسيموس وأنه افتعل فضيحة بكلامه، أرعبه الأمر وبدأ يبحث عن ملاذ آمن من تداعيات طيشه.

2- لذا وبعد أن أُجبِر على إدراج اسمه في لائحة الاتّهام نسي ببساطة بونتيانوس ابن أخيه والذي دأب على اتّهامي بقتله منذ أيام. ما أشار إطلاقا لوفاة قريبه الشاب ممتهنا بذلك جُرما بهذا الحجم. ولكي لا يبدو وكأنه تخلّى تماما عن مزاعمه اكتفى بفرية السحر في عريضته، وهي تهمة كفيلة بتوريط المتَّهم لكن يصعب إثباتها. حتى إنه لم يجرؤ على ذلك جهارا باسمه، إذ قدّم الشكوى بعد يوم باسم ابن زوجتي سيكينيوس بودنس، مجرّد صبي، مضيفا أنه أتى كوكيل عنه. هذه طريقة جديدة ليهاجمني عبر وكالة شخص ثالث مُلتحفا سنّه اليافع دِرعًا لنفسه الأفَّاكة من تهمة التبليغ الكاذب. ومع ذلك فقد فكّكتَ خُططه بواسع نظرك يا ماكسيموس وأمرتهُ بتجديد الاتهام باسمه الخاص، وعلى الرغم من تعهُّده بالامتثال فقد تعذّر دفعُه إلى رُكنٍ ضيّق. هو بذلك يتحدى سلطتك ويستمر في المناوشة من بعيد بتُهمه الملفّقة، إذ يتملّص باستمرار من خطر اتّهام الغير جِزافا ويستميت في تشبّثه بالدور الآمن كوكيل عن المتّهم. وهكذا أضحت حقيقة الاتّهام حتى قبل رفع القضيّة إلى المحكمة سهلة الاستيعاب، فالرجل الذي لفّق التّهمة وكان أول من ساقها لم تكن لديه الجرأة لتحمّل المسؤولية عنها. ودون ذلك فنحن نتحدّث عن سيكينيوس أيميليانوس، الذي لو اكتشف أيّ بيّنة تدينني بالكاد سيتوانى عن كيل التُّهم لغريب بِوابلٍ من الجرائم الخطيرة، كونه أكّد زورا زيف وصيّة عمّه مع أنه كان على دراية بصحّتها، وما كفاهُ وهو يكابر عنادا أن أقرّ السيناتور الموقّر لوليوس أوربيكوس[4] في توافق مع قرار القضاة من ذوي الرأي وكذلك مستشاريه عن صحّة الوصيّة وأنها مُثبتة حسب الأصول المرعيّة، إذ استمرّ في تحدّيه للحكم المقدّم بصوت

---

[4] يُقدّر أنه السيناتور كوينتوس لوليوس أوربيكوس أصيل منطقة تيديس التاريخية، يقع ضريحه في جبل شواية بالمكان المسمى 'الهري' في بلدية بني حميدان بولاية قسنطينة بالجزائر، غير بعيد عن المدينة الأثرية 'تيديس'. تشير مصادر عديدة إلى أنه تولى مناصب سامية في الإمبراطورية منها Praefectus Urbi لمدينة روما نفسها.

- CIL VIII, 6705.

- CIL VI, 28.

هذا المواطن المتميّز ليؤكّد بأغلظ الأيمان أنها كانت مزوّرة، حتى إنه أثار حفيظة لوليوس أوربيكوس الذي كان سيُنزل به أشدّ عقاب لو لم يكبح جماحه بمشقّة.

3- أنا أعتمد على حِسِّك بالعدالة وعلى براءتي يا ماكسيموس، كما آمل أن نستمع إلى صوت لوليوس في هذه المحاكمة يرتفع في دفاعي باندفاع، لأنه هيّن على أيميليانوس أن يتعمّدَ اتّهام رجل يدري ببراءته طالما أُدين كما ذكرتُ سلفاً بالكذب في قضيّة هامة شَهِد عليها حاكم المدينة. فكما يتفادى الكريم بمنتهى الحرص تكرار خطيئة ارتكبها ذات مرّة، يكرّر اللئام جُرمهم السابق بمزيد من الثقة، ولعلّني أضيفُ أنهم كلما تمادوا في أفعالهم ازدادوا مجاهرة بصفاقتهم، لأنّ الشرف كالثّوب، كلما بَلِي أكثر، أرتُدِي دون حذر أكبر. أعتقد أنّ شَرفي يُلزِمني بدحض كل تخرّصات خصومي قبل خوضي في لائحة الاتّهام الفعليّة، لأني لا أترافع حصرا عن قضيّتي بل عمّا يتعلّق بالفلسفة التي تستاء عَظَمتها حتى من أدنى لطخة تُلقى على كمالها كما لو كانت أخطر الاتّهامات. فقد أفاض محامو أيميليانوس بِلَغوهم المعهود طوفانا من الاتهامات الملفّقة، منها ما استهدف خصيصا سمعتي، ومنها ما اعتاد السّوقة توجيهها للفلاسفة. قد نعتبر بحقّ أنّ هذه الاتّهامات مجرّد أبخرةٍ تمّ اشتراؤها بثمنٍ والتلفّظ بها لتستوفي حقّ إيجارها البائس، وتجلّيا لما شرعنه محامون احترفوا نفث سمومهم لإيذاء الغير. حتى وإن كان الأمر يخصّني سيتوجّب عليّ دحض هذه الأكاذيب ولو بإيجاز، لئلا أبدو- أنا الذي أحرص كلّ الحرص لئلا أدع وصمة أو مذمّة تلحق بي- إن تغاضيتُ عن اتّهاماتهم المُغرضة، كمن أقرّ ضمنيا بحقيقتها على من تعاطى معها بامتهان. فعزيز النفس في ظنّي، لا يحتمل الثلب ولو بهتانا. حتى أولئك الذين أساؤوا فعلا وهم يدرون، وإن ألفوا التثريب بِحقّهم بما يفعلون، يتأثّرون كثيرا بتجريح الناس لهم ويغضبون، إذ في قرارة أنفسهم يعلمون، وإن لم يأخذ بِفِعالهم آخرون، أنّ الملامة قد تطرق بابهم في أيّ وقت وأنّ ذلك ما يستحقّون. ولذا يحتدم الصالح والعفيف غيظا وهو يرى نفسه مُثقلا بِتُهمٍ يليق به أن يسوقها ضد آخرين بنفسه، فما تعوّدت وما عاقرت مسامعه الإهانة باعتياده على تقريظه إلى حدٍّ تكون فيه الإساءة أكثر مما يصطبر عليه. على كل حال، إن أبدُ لكم ربما توّاقا لتفنيد

تُهمٍ جدّ طائشة وحمقاء، فاللوم يقع على من دفع باتّهامات لن تجلب بتفاهتها عدا الخزي لأصحابها. لن أُلام أنا، فَدافِع الشرف يقتضي مني دحضَ تُهمٍ بهذا السُّخف.

4- بادئ ذي بدء بافتتاح لائحة الاتّهام قبل قليل سمعتَهم يقولون 'إنا نقاضي في محكمتكم فيلسوفا ذا رواء، بلُغ في اللاتينية واليونانية على حدّ سواء[5]!' يا له من تلميح لعين! إن لم أكن مخطئا، فبهذه الكلمات تحديدا افتتح تانونيوس بودنس[6] لائحة الادّعاء عند بدأ الدعوى، شخصٌ لا يجدر بأحد أن يتّهمه بالفصاحة. ليته أصاب باتّهامه لي بِجُرمين خطيرين كالأناقة والبلاغة، لكان من الأسهل الإجابة بالكلمات التي دفع هوميروس بها باريس ليردّ على هكتور[7] والتي يمكنني ترجمتها كالآتي: "لا حكمة في غمص عطايا الآلهة الرائعة، لأنّ الأشياء التي تعوّدت إعطاءها منعتها عن الكثيرين، الذين من شأنهم أن يحوزوها بكل سرور". وفوق هذا الردّ يتعيّن عليّ القول بأنّ لا جُرم في تدثّر الفلاسفة بطلعة بهيّة، ففيثاغورس أول من اتّخذ لقب 'فيلسوف'[8] كانت وسامته فارقة في عصره. كذلك زينو[9] فيلسوف فيليا القديم الذي ابتكر تلك الآلية العبقريّة لدحض الفرضيّات بالتناقضات، كان كما يؤكّد أفلاطون أكثر الرجال وسامة في جيله. كما وَردَ عن فلاسفة آخرين بأنهم كانوا وُسماء أيضا وأنهم أضافوا زينة بهيّة إلى جمال خَلقِهم بجَمال خُلقِهم. لكنّ دفاعا كهذا بعيد عني كما أسلفت، فما كان لي من الحُسن نصيبٌ يُذكر، ناهيك أنّ انقطاعي للأدب جَرف أي رُواء سبق وأن اكتساه جسمي، إذ شفّ

---

[5] أنظر:

- Apuleius, Florida. 18; 26.

[6] تانونيوس بودنس. محامي المتّهمين، ويفترض أن يكون أحد أقاربهم.

[7] إلياذة هوميروس، الكتاب الثالث. أنظر:

- Homer, Iliad. III. 65.

[8] فيثاغورس. مبتكر لفظ φιλοσοφία 'فيلسوف'. أنظر:

- Apuleius, Florida. 15.

[9] زينو. ولد في فيليا أو إيليا حوالي 463 ق.م وهو من تلامذة بارمينيادس، يعود الفضل إليه في ابتكار الدياليكتيك 'الجدلية'.

- Frederick Copleston, History of Philosophy Volume 1: Greece and Rome. A&C Black, 1 juin 2003. pp. 54-60.

جسدي وامتصّ نضارتي وخسف ببشرتي وأخلّ بحيويّتي. أمّا بالنسبة لِشَعري أين صرّحوا بكذبٍ فاحشٍ أني تركتهُ يطول قصد التزيّن، أنتم ترون أناقته ورونقه. هو متشابك وملتو وأشعث ككُبّة من المشاقة، أهلب وغير سويٍّ في اتّساقه، جدّ معقود ومتلبّد فلا يقدرنّ أحد على فكّ تشابكه، وهذا لا يُعزى لغفلتي عن تلف شعري بل لأني لا أقوم عادة بمشطه أو تصفيفه. وفي قولي هذا ما يكفي في اعتقادي لدحض التّهم المتعلّقة بِشَعري والتي يرمونها ضدي كما لو كانت تستوجب عقوبة الإعدام.

5- في ما يخصّ بلاغتي - إن كانت لي في البلاغة حُظوة - فالأمر لا يستدعي ذهولكم أو حسدكم، فإن عكفتُ مذ نعومة أظفاري مُنكبًّا على الأدب ومُنكفًّا عن كل الملذّات، فقد سعيتُ خلف البلاغة بكدحٍ لعلّي بذلتهُ أكثر من كل الناس دون أن أنتبه لليلٍ ونهارٍ أو أراعي صحّتي من دنفٍ وانهيار لا لأُثير بها خشية خصومي منها، فإني، وإن وضعتُ في رِفعتها كل ثقتي، فأنا أنشدُها في أمري أكثر ممّا أُبديها.

طبعا، إذا صَدُقت الحكمة التي قيل إنها كُتِبت في قصيدة ستاتيوس كايسيليوس[10] أنّ البراءة هي بلاغة بحدّ ذاتها، فبوسعي أن أضعَ ثقتي في هذا القول وأتبجّحَ بأني لا أدنو عن أحد بيانا. فمن أفصحُ مني إن سلّمنا بهذا الأمر فرضا، أنا الذي لم يسبق أبدا أن تبادر إلى ذهني شيء أخاف التعبير عنه؟ كلا بل أنا الأفصح قولا طالما قبضتُ بمقتٍ شديدٍ على كل خطيئة، والألسن قيلا لأني لا أدفع بقول أو عمل أخشى مناقشته علنا، ولذا سأنطلق في مناقشة أبياتي التي قدّموها كما لو أدرجتُ فيها ما يدفعني للاستحياء. أكيد أنكَ لاحظتَ السّخرية التي أبديتُ بها امتعاضي وهم يتلونها بذلك الأسلوب السوقيّ والفظّ.

6- قرأوا أولا واحدة من خواطري، أبياتَ شعرٍ عن مسحوق الأسنان وجّهتُها إلى أحدٍ يدعى كالبيرنيانوس. حين قدّم هذا الأخير رسالتي كدليل ضدي أعماهُ توقه إلى إيذائي عن

---

[10] ستاتيوس كايسيليوس. (230-168/167 ق.م). من أشهر الشعراء الكوميديين.

- Beare W, The Roman Stage: A Short History of Latin Drama in The Time of The Republic, 3d Ed. London: Methuen 1964. pp. 76- 80.

حقيقة أنّها إن تضمّنت أيّ أمر يدفع لإدانتي فالتأثيم يتضمّنه كذلك، لأنّ الأبيات تَشهدُ صراحة أنه سألني أن أعهدَ إليه بما يكفي لتنظيف أسنانه:

"عِمت صباحا! صديقي كالبيرنيانوس، تلقى السّلام الذي تحمله هذه الأبيات الخفيفة، والتي عبرها أرسلُ استجابة لندائك، بودرة نادرة لِتُطهّر بها أسنانك، هذا المسحوق الرفيع، من البهارات العربيّة رائع، سيجعل فمك يسطع، ببريق عاجي ناصع، سيهذّب اللثّة المتورّمة ويكتسح عنك، ما خلّفته وليمة أمسك، حتى لا يُرى وسخٌ أو لُطخٌ فيك، إن أزاح الضّحك شفتيك عن أسنانك".

هل لي بسؤالك! ما الشائن في هذه الأبيات سواء في الجوهر أو الأسلوب؟ ما الذي يخجل الفيلسوف من نَسْبِه إليه؟ عدا أني أُلام فعلاً على إرسال مسحوق مصنوع من التوابل العربية إلى كالبيرنيانوس، الشخص الذي سيكون من الأنسب له أن يطهّر أسنانه ولثّته الحمراء القاتمة وفقا للطريقة القذرة الرائجة بين الأيبيريين كما يقول كتولوس[11][12].

7- رأيتُ منذ قليل أنّ البعض منكم بالكاد استطاع كبحَ نفسه من الضحك حين تناول خطيبنا آرائي حول تطهير الأسنان كأمر يدعو للاستنكار بشدّة، مُدِيناً تقديمي لمسحوق الأسنان بسخط شديد كما لم يسبق لأحد أن أدان تقديم السّموم. من واجب الفيلسوف طبعا ألا يستكين أبدا لتشنيع البعض عليه عدم سماحه لأيّ وسخٍ بملامسته، طالما لا يطيقُ أيّ قذارة أو عفونة على أيّ جزء مرئي من جسده، وبالأخص الفم، فالعضو يُستخدم مرارا بشكل مُنفتحٍ وجليّ من قبل الإنسان لتقبيل صديق أو

---

[11] غايوس فاليريوس كتولوس. من أعظم الشعراء الرومان. تحدّث جيروم عن مولده ومماته في مؤلفه the Chronicles of Eusebius، تتوافق جميع الحقائق المعروفة بشأن Catullus بشكل جيد مع الفرضية القائلة بأنه ولد في 87 وتوفي في 54 ق.م في سن الثالثة والثلاثين. أو أنه ولد في 84 وتوفي في 54 ق.م في سن الثلاثين. حتى أوفيد أكّد أنه توفي شابا.

- Ovid, Amores. III. 9.

[12] يشير أبوليوس ببراعة إلى مقطع تهكّم فيه كتولوس من شخص يدعى إغناتيوس: "وفي أرض السيلتيبيريين يدرّون البول في الصباح الباكر، ويفركون أسنانهم ولثّاتهم الوردية به ... ". أنظر:

- Delphi Classics, 2015. Delphi Complete Works of Catullus (Illustrated). XXXIX. ad Egnatium. 17-21. p. 316.

لإجراء حوار أو للحديث إلى العامة أو لأداء الصلاة في أحد المعابد، والكلام بطبعه يستبقُ كل نوع من أنواع العمل، وهو ينبعُ كما يقول الشاعر العظيم: "من سور أسناننا"[13]. لو أطلّ علينا اليوم أحدٌ بثقل اسمه، فسيقول بطريقته: حريٌ بالذين يهتمّون بأسلوبهم في الكلام أن يولوا عناية فائقة بِفَمِهم أكثر من أيّ قسم أخر من جسدهم، لأنه حُجرة الفكر وبوابة الكلام وملتقى الأفكار. أنا عن نفسي يجدر بي القول: لا يوجد في تقديري المتواضع ما يعيبُ رجلا حرّ المولد بتنشئة شخص محترم أكثر من فم متّسخ، لأنّ فم الإنسان في مقام عال، لافِتٌ للنظر، مُستحوِذ على الانتباه. بعكس الوحوش البريّة والماشية أين يُوارى الفم أسفلا ويبصر نزولا صوب القوائم، على مقربة من طعامهم ومن ممشاهم، وهو بالكاد ينكشفُ إلا بموت مالكه أو احتقانه برغبة في العضّ. بل لا يوجد جزء من الرجل أسبق منه في لفت الانتباه حين يصمتُ ولا أبرز للعيان حين يتكلّمُ.

8- ولذا سأكون ممتنا إذا ردّ عليّ منتقدي أيميليانوس وأخبرني ما إن كان معتادًا على غسل قدميه، أو إذا اعترف بأنه دأب على ذلك، ما إن كان مستعدا للجدال بأنّ على الرجل أن يبدي اهتماما أكبر بنظافة قدميه أكثر من أسنانه. إذ من واجبي نُصح شخصٍ مثلك لا يفتح فاه إلا للتشهير والإساءة يا أيميليانوس ألا يعير أيّ اهتمام لحالة فمه أو يحاول إزالة البقع عن أسنانه باستخدام مساحيق شرقية، بل حريٌّ به فركها بفحم من محرقة الموتى دون غسلها حتى بالماء العادي. فليتعفّن لسانه الجاني مُطلقُ الأكاذيب والشتائم في القذارة والنتانة التي يحبّها! أيُعقل يا خسيس، أن تُطلق بلسانٍ طاهرٍ ونظيف كلاما قذرا ومُقرِفا، أو أنك كالأفعوان تنفثُ بأسنانٍ بيضٍ كالثلج السّواد والسمّ القاتل؟ الذي يرغبُ في أن يُطرب مسامع الآخرين بكلام راقٍ، يليق به أن يستبق ذلك بتطهير فمه، تماما كما نقوم بغسل وعاءٍ لحمل شراب رائقٍ. ولِمَ أسترسل في الحديث أكثر عن البشر؟ والتمساح وحش النيل - كما أخبروني - يفتح فكّيْه بكل براءة حتى يتم

---

[13] أنظر:

- Homer, Odyssey. I. 64.

تنظيف أسنانه(14)، ولِكون فمه كبيرا دون لسان ومغمورا في الماء باستمرار فإنّ الكثير من العلق يتكوّم بين أسنانه. وما أن يرتمي على ضفّة النهر ويفتح فاه حتى يأتيه طائر مائي صديق ليزيلها عنه، والذي يُسمَح له بإدخال منقاره دون أن يخشى على نفسه.

9- لكن كفانا من هذا! نأتي إلى بعضٍ آخر من أبياتي الغراميّة على حسب قولهم والتي قرؤوها بغلظة وفضاعة كي لا يتركوا أيّ انطباع عدا الاشمئزاز. ما صلة ذلك بالممارسات الشِرّيرة للسِّحر الأسود إن كتبتُ قصائد في مدح أولاد صديقي سكريبونيوس لايتوس؟ أحقيقة كوني شاعرًا تجعلني ساحرًا؟ من سبق له وأن استمع إلى خطيبٍ يُقدّم أرضيّة للشّبهة أو تخمينات مواتية أو حجّة ملائمة كقولهم: 'لقد كتب أبوليوس أبياتًا! إن كانت سيّئة فهذا جرمٌ يُحسب عليه كونه شاعرًا لكن ليس كذلك كونه فيلسوفًا! إن كانت جيّدة فلِمَ تتّهمه؟ 'لكنها كانت أبياتا لعوبة شهوانية'. إذًا هذا الذي تتّهموني به؟ وقد ألقيتم الكلام على عواهنه حين اتّهمتموني بممارسة السحر الأسود؟ مع أن كُثرًا آخرين قد كتبوا أبياتا مثلها إن كنتم جاهلين بهذه الحقيقة. في أوساط الإغريق مثلا كان هناك أحدٌ تيوسي(15) وآخر لاسيدايموني(16) وكذلك كيوسي(17) وعدد لا يحصى من الآخرين، وكانت هناك امرأة ليسبية(18) قَصَّدت بتلك الروعة وذلك الشغف شَدْوًا يدفعنا بعذوبته

---

(14) أنظر:

- Herodotus, The Histories. II. 68.

(15)تيوسي أو تيوني نسبة إلى مدينة 'تيو' أو 'تيوس' بتركيا الحالية، يفترض أن يكون المقصود هو أناكريون والذي ولد حوالي 570 ق.م. كتب كل شعره باللهجة الأيونيكية القديمة واشتهر بقصائده المثيرة.

- Labarbe Jules, Un Curieux Phénomène Littéraire. L'anacréontisme: Bulletin De La Classe Des Lettres Et Des Sciences Morales Et Politiques, Tome 68, 1982. pp. 146-181.

(16) لاسيدايموني. يفترض أن يكون الشاعر الإغريقي الغرامي ألكمان والذي ولد في القرن 7 ق.م.

- Viansino, Giovanni. Revue des Études Anciennes. Tome 76, 1974, n°3-4. pp. 223-231.

(17) كيوسي أو كيوني نسبة لجزيرة 'كيا'. يفترض أن يكون الشاعر سيمونيدس والذي ولد في القرن 6 ق.م.

- Marcel Détienne, Revue Des Études Grecques. Tome 77, Fascicule 366-368, Juillet-Décembre 1964. pp. 405-419.

(18) ليسبية. يفترض أن أبوليوس يشير إلى الشاعرة الإغريقية الشهيرة صافو والتي ولدت في القرن 7 ق.م.

- Reinach, Théodore: Pour Mieux Connaître Sappho. Comptes Rendus Des Séances De l'Académie Des Inscriptions Et Belles-Lettres, 55e Année, N. 9, 1911. pp. 718-734.

لنغفر لها بذاءة لفظها. ضِمن شعرائنا كان هناك أيديتوس وبوركيوس وكتولوس[19] مع عدد لا يحصى من الآخرين. 'لكنهم لم يكونوا فلاسفة'. أستنكرُ إذن أنّ سولون[20] كان رجلا جادًّا وفيلسوفا؟ مع أنه صاحب هذا البيت الخليع:

"أتوّق لجسدكِ وتقبيل شفاهك العذبة".

ما الدّاعر في كل أبياتي أمام هذا السطر لوحده؟ لن أقول شيئًا عن كتابات ديوجنس الكلبي[21] وعن زينون[22] مؤسّس الرواقيّة والعديد من الحالات المماثلة الأخرى.

اسمحوا لي أن أقرأ أبياتي من جديد حتى يُدرك خصومي بأني لا أخجل منها:

"كريتياس يا كنزي، ويا نبراس حياتي شارينوس. تمسّكوا بقلبي المعذَّبِ بِحُبّكم، جزؤكم الذي لا تَحُول ملكيّته لغيركم. آه! لا تخافوا عليّ، ولو أنّ النّارَ تتّقد بداخلي، ولو أنّ ناركم تستعر أيها الصّبية الربانيون، لأصطبرنّ عليها حتى تكونوا لي. ليتني بهذا أكون لكم،

---

[19] فاليريوس أيديتوس، بوركيوس ليسينوس ولوتاتيوس كتولوس. شعراء خليعين عاشوا بين القرنين الثاني والأول ق.م.

- H. de La Ville de Mirmont, Le poète Laevius. Revue des Études Anciennes. Tome 2, 1900, n°3. pp. 204-224.

[20] يفترض أن يكون سولون الأثيني مؤسس المبادئ الأولى للديمقراطية. ولد في القرن 7 ق.م وهو أحد الحكماء الإغريق السبع. يُقال إنه كانت لديه ميولات جنسية تجاه الصبية، لكن أرسطو دافع عنه قائلا: "أولئك الذين يتحدثون بهراء صرف، يزعمون أنّ سولون كان حبيب بيسيستراتوس". إذ كان سولون أكبر بثلاثين عامًا تقريبًا من بيسيستراتوس.

- Aristotle, Constitution of Athens: Translated by Thomas J Dymes. London Seely And Street, Strand 1891. pp. 36-37.

[21] ديوجنس الكلبي. ولد في القرن 5 ق.م في سينوب. من أتباع مؤسس المدرسة الفلسفية الكلبية أو التشاؤمية لتلميذ أرسطو الفيلسوف الشهير أنتيستنيس، كتب بنمط خليع 'عن الزواج وإنجاب الأطفال'.

- William Smith, Dictionary of Greek and Roman Biography and Mythology. Volume 1. Taylor And Walton. London, 1850. pp. 1021-1022.

- Diog. Laert. VI. 2. 12

[22] زينون الكيتيومي. ولد في القرن 4 ق.م في لارناكا الحالية بقبرص 'كيتيون سابقا' وهو مؤسس المدرسة الفلسفية الرواقية. كتب بأسلوب خليع 'فن الحب'.

- Ibid., VII. 21. 29.

قريبا منكم كما هي أنفسكم إليكم، امنحا هذا فقط وتأكّدا أنكما ستكونان عزيزين كعينيّ إلي".

والآن، اسمحوا لي أن أقرأ لكم الأخرى أيضا والتي قرؤوها في الأخير على أنها الأكثر فُحشا في التعبير:

"بإكليلِ زهورٍ عزيزي كريتياس، وبشدوٍ أطرحُ قِبل قدميك. أبياتا لك أُهديها، ضفائر لملاك قدرك. شِعرٌ أُطلقهُ لنتغنّى بك، في يومٍ من أفضل أيام حياتك. أين يجلبُ طواف الفصول مجد ربيعك الرابع عشر. فليُشرق بهذه الأكاليل جبينك برونق الربيع وملكوتك، ولتزّيّن بالورود زهرة حياتك، وليُقرّ شرخ صباك، بإشراقة هذه الورود الربيعية. حتى أُجزى أنا على حبي لك، على هداياي التي لا تفوق هداياك. وأحظى بدوري ببركة الإكليل التوأم، حين أضفر ذراعي بنعومةٍ حواليك. ويخسفَ قُرمز الورد بتقبيلك، أمام تورّد شفتيك. وإن ذويتَ فليكن هذا جزائي، فانفُث في القصب عبير روحك، حتى تستحي وتصمُت أشعاري، أمام شدو قُصّابتك".

10- هذه هي الأبيات يا ماكسيموس والتي جرّموني عليها كما لو كانت عملَ ماجنٍ خليعٍ، أكاليلُ في مضمونها وترانيم في مكنونها. أكيد أنك لاحظت أيضا في هذه الصِّلة أنهم ذهبوا بعيدا في اتّهامي بشأن تسمية الطفلين شارينوس وكريتياس بغير اسميهما الحقيقيين. قد يتّهمون على هذا الأساس كايوس كتولوس بدعوته كلوديا بليسبيا، وتيكيداس[23] على استبدال اسم بيريبا بميتيليا، وبروبرتيوس[24] لإخفاء اسم هوستيا

---

[23] تيكيداس. شاعر معاصر لكتولوس من الشعراء الخليعين الذين ينتمون إلى مدرسة الإسكندرية اليونانية. أتى على ذكره أوفيد في قائمة الشعراء الخليعين.

- Ovid, Tristia. II. 433.

[24] بروبرتيوس سكتوس. تعتبر أبولوجيا أبوليوس من المصادر الأدبية النادرة التي تؤكد هوية هوستيا الحقيقية، ودون ذلك فكينثيا لا تبدو في أشعار بروبرتيوس كامرأة حقيقية، فلفظ Cynthia مشتق من هضبة Cynthus بجزيرة ديلوس، وهي مكان مولد الآلهة أبولو وديانا وفقا لعقيدة القدامى، وقد استخدم الشاعر الاغريقي كليماخوس القوريني هذه المقاربة اللفظية بدعوته للإله أبولو بكينثيوس في عديد المرات.

- Hans-Christian Günther, Brill's Companion to Propertius. BRILL, 29 août 2006. p. 227.

تحت اسم كينثيا المستعار، وتيبولوس[25] لتغنّيه بديليا في شِعره بينما كانت بلانيا في قلبه. وإني لأُدينُ بدوري كايوس لوسيليوس[26] وإن أقررتُ له بكل رُخصِ الشاعر الساخر على الفُحش علنا وهو يشير إلى الغلامين جينتيوس وماسيدو باسميهما الحقيقيين في شِعره دون محاولة تمويه. بينما يبدو لي شاعر مانتوا[27] أكثر تحفّظا في شعرِهِ حين تشبّبَ بِغُلام صديقه بوليو في واحدة من أشعاره الرعويّة الشّهيرة، متجنّبا ذِكر الأسماء الحقيقيّة ومُسمّيا نفسه كوريدون والفتى ألكسيس. لكن أيميليانوس الذي تجاوزت سذاجته بكثير رُعاة الغنم والبقر عند فيرجيل، والذي لطالما كان فضّا وهمجيّا، يعتقد نفسه أكثر صرامةً من أبطال الأزمنة القديمة سيرانوس[28] وكيريوس[29] وفابريسيوس[30]، إذ لا يهضمُ صدور أبياتٍ كهذه عن فيلسوف أفلاطوني. هل ستتمسّك بهذا الموقف يا

---

[25] تيبولوس ألبيوس. شاعر روماني (54-19ق.م). يؤكد معجم الفنون والعلوم والآداب العامة للموسوعة البريطانية أن أبولوجيا أبوليوس هي المصدر الوحيد الذي يؤكّد هوية ديليا الحقيقية.

- The Encyclopædia Britannica: A Dictionary of Arts, Sciences and General Literature: New Maps and Many Original American Articles by Eminent Authors. With New American Supplement, Volume 23. Werner Company, 1898. p. 349.

[26] كايوس لوسيليوس. من أعظم الأدباء الهجّائين في روما الذين عاشوا في القرن الثاني ق.م. الإشارة في المقطع غير معروفة، مع أنّ التاريخ حفظَ جزءًا يحتوي على اسم ماسيدو وبصفة محتملة كذلك جينتيوس.

- Baehrens, Fragm. Poet. Rom. p. 168.

[27] أنظر:

- Vergilius, Ecloga. II.

[28] سيرانوس. يُقدّر أنه القائد الحربي ماركوس أتيليوس ريغولوس سيرانوس من حقبة الحرب البونية الأولى، والذي انتصر على القرطاجيين في حرب خليج اكنوموس. يعتبر أسطورة لدى الشعب الروماني.

- Polybe, Histoires. I. 26-28.

[29] كيريوس. يُقدّر أنه الماجيسترا الروماني مانيوس كيريوس دونتاتوس. يعتبر أسطورة ومثالا أعلى للشعب الروماني كما يوضح بلوتارخ.

- Plutarque, Vies parallèles. Marcus Caton. III.

[30] فابريسيوس. القنصل كايوس فابريسيوس لوسينوس وهو جنرال حرب روماني، اشتهر بما حدث له مع بيرهوس ملك مقدونيا. إذ بعد هزيمة الرومان من قبل بيرهوس في هيراكليا، تفاوض فابريسيوس على شروط السلام مع بيرهوس. أفاد بلوتارخ أن الأخير قد تأثّر بعدم قدرته على رشوة فابريسيوس، وأفرج عن السجناء حتى بدون فدية. كما يستحضر دانتي تفضيله لـ 'الفقر بالفضيلة، بدلاً من الثروة العظيمة مع الرذيلة' في واحدة من اللوحات الجدارية للرجال اللامعين في غرفة العمالقة المزخرفة التي تزيّن Palazzo Trinci في فولينيو.

- Plutarch, Pyrrhus. 18.

- Dante, Divine Comédie. Purgatoire, Chant XX.

أيميليانوس إن أبنتُ على أنّ فقراتي صيغت على نسق أفلاطون؟ والذي لم يبق من نُظمه إلا مرثيّات الحب بعد أن أحرقَ جميع أشعاره لأنها في ظنّي لم تكن تُضاهيها في الروعة. لنستمع إذن إلى الأبيات التي كتبها أفلاطون تكريما للفتى أستر مع أني أشكُّ في مقدرتك على استطابة الأدب في سنّك هذا:

"كنتَ نجمَ الصباح بين الأحياء قبل أن يغادرنا نورك، وما أن فارقتنا، أصبحتَ كنجم المساء، تسطعُ بين الموتى بضيائك".

هناك قصيدة أخرى قدّمها أفلاطون يتناول فيها الأولاد ألكسيس وفايدروس معًا:

"ما أن أطريتُ حُسن أليكسس بكلمتين وإذ بأعين الجميع ترنو إليه مشدوهة. فهل لنا يا روحي أن نُرشد الوحوش الطريدة في سعيها وقد فقدنا هكذا فايدروس؟ آه! فلنحذر !".

دون ذِكر أيّ أمثلة أخرى، سأختتم باقتباس سطرٍ وجّهه أفلاطون إلى ديون السرقوسي[31]:

"ديون، بِحُبّك شتّتّ روحي".

11- من منّا الذي يقع عليه اللّوم أكثر؟ أنا الذي أتحدّثُ على نيّاتي عن أمور كهذه في محكمة القانون؟ أم أنتم على افترائكم الذي ساقكم لِتُدرجوا تُهمًا كهذه في عريضة اتّهاماتكم؟ إذ تشيرون لأخلاق الشاعر من العبث في شِعره. أما قرأتم لكتولوس الذي ردّ على أولئك الذين تمنّوا له السوء:

حريٌّ بالشاعر الفاضل أن يكون عفيفا، لكن لا ضرورة لأبياته أن تكون كذلك[32].

---

[31] ديون السرقوسي. ولد في القرن 5 ق.م وهو تلميذ ومرافق أفلاطون.

- Plutarch, Lives: life of Dion.

[32] الجملة الأصلية في بيت غايوس فاليريوس كتولوس وفقا لكارل كوهن هي: "يجب أن ينتصب الشاعر المتفاني في قيمه، ولكن ليس بالضرورة في قصائده ..."

- Catullus, XVI. 5.

لما كرّم هادريان الإلهي [33] ضريح صديقه الشاعر فوكونيوس[34] بنقشٍ تضمّن بيتَ شعرٍ من قلمه كَتبَ عليه ما يلي:

"لقد كُنتَ داعرا في قصائدك، عفيفا في فؤادك".

كلماتٌ لم يكن ليكتبها أبدًا لو كان يعتبر بيتا خفيف الدّم دليلا على مجون صاحبه، حتى إني أتذكّر قراءة الكثير من قصائد هادريان الإلهي والتي كانت من الأسلوب نفسه. أتجرؤ يا أيميليانوس على القول إنّ ما قام به الإمبراطور والرقيب هادريان الإلهي، والذي بمجرّد أن قام به تمّ تخليده للأجيال اللاحقة، كان فعلا منحطًّا. حتى وإن صرفنا النظر عن ذلك، أتخال ماكسيموس سيجرّمُ أيّ شيء مُقولبٍ على أفلاطون الذي كل أبياته كما قرأتُها للتو، من النقاوة بمثل ما هي من الجلاء ومن العفاف في صوْغها بمثل ما هي من الصراحة في البوح بها؟ لأنّ الإخفاء والتستّر في هذه المسائل وما شابهها لهما علامة الآثم، أمّا الإقرار والجهر بها لهما إشارة على أنّ الكاتب يستجيب لبديهته، فقد أوتيت البراءة صوتا للكلام، أمّا الذنب، فقد أوتي الصمت لحجب خطاياه.

12- وهذا دون أن أقول شيئا عن تلك التعاليم الأفلاطونية السامية والإلهية، المعروفة لدى الصّفوة والمجهولة تماما عند السّوقة، تلك التي تعلّمنا مثلا أن فينوس ليست إلهة بكيانٍ واحدٍ بل باثنين[35]، كلّ كيانٍ منها يحكم نوع الحب الخاص به وعديد الأصناف من المحبّين. من جهةٍ فهي إلهة الرعيّة الشائعة، والتي تتّقد بعاطفة مبتذلة وسوقيّة وتقتاد لا قلوب البشر فحسب بل حتى الماشية والوحوش البرّية ليَهبوا أنفسهم إشباعا

---

[33] هادريان المقدس. الإمبراطور الروماني بيبليوس أيليوس هادريانوس. ولد في 24 جانفي 76 وشغل منصب إمبراطور في الفترة الممتدة بين 117م إلى غاية 138م. كتب الشعر باللغتين اللاتينية واليونانية كما كتب أيضا سيرته الذاتية. اهتم بالفن والعمارة والأشغال العامة وحتى علم التنجيم والعرافة.

- Thorsten Opper, Hadrian: Empire and Conflict. Harvard University Press, 2008. p. 34.

[34] فوكونيوس. يُفترض أن يكون الشاعر فيكتور فوكونيوس.

- Anthony R Birley, Hadrian: The Restless Emperor. Routledge, 2013. p. 193.

[35] "فينوس ليست إلهة بكيانٍ واحدٍ بل باثنين". أنظر:

- Plato, Symposium: Translated by Benjamin Jowett, Hayden Pelliccia. Modern Library, 1996. pp. 11-12.

لنزواتهم: إذ تقصفُ هذه المخلوقات بقوّة عاتية جبارة وتُقيِّد أجسادهم الخانعة في أحضان الشّهوة. الأخرى قوّة سماويّة تغمرها عاطفة سَمِيّة وسخيّة، فهي لا تكترث لأحد عدا قلّة من البشر، ولا تغري أو تغوي أتباعها تجاه أفعال بغيضة، إذ إنّ هواها غير طائش أو شهوانيّ بل جِدّي وجليّ، وبه تستهوي أحبّاءها في السّعي وراء الفضيلة عبر الكشف لهم عن جمال عفّته. أمّا إذا حدث وأن استودعت أشخاصا أبهياء إلى أهوائهم فإنها تضع ما يحول دون إقدامهم على تصرّف شائن. إذ ليس في جمال الأجساد ما يُثير الإعجاب عدا أنه يُذكِّر أولئك الذين ارتقت أرواحهم فوق الأمور الإنسانيّة إلى الأمور الإلهيّة بالجمال الذي أبصروه مسبقا في مطلق حقيقته ونقاوته بين الآلهة في السماء. لذا دعونا نُقرُّ بأن أفرانيوس[36] يُظهر جماله المعتاد في التعبير حين يقول:

"لا يبلغُ الحب إلا الحكيم، إذ لا يُدرك الآخرون غير الشّهوة".

ولو أنك رغبتَ في معرفة الحقيقة المحضة يا أيميليانوس أو إن كنت قادرًا على استيعاب مسائل سميّة كهذه، فإن الحكيم لا يحب بل يستذكر فقط.

13- وعليه فأنا أسألك العفو عن الفيلسوف أفلاطون بشأن شِعره الغرامي وإراحتي من حتميّة الإساءة إلى الوصايا التي ألقاها إنيوس[37] على لسان نيوبتوليموس بالتفلسف زيادة على اللازم[38]، فإن أبيتَ فأنا مستعدٌ تمامًا لتحمّل اللّوم معه بشأن أبياتٍ من هذا النوع. أمّا أنتَ يا ماكسيموس فلك مني شكري وامتناني على إصغائك ببالغ الاهتمام

---

[36] لوكيوس أفرانيوس. ولد في 150 ق.م. من أشهر كُتّاب الكوميديا الرومانية، وواحد من الكُتّاب الثلاث ل fabulae togatae وهي نوع من الأداء المسرحي اللاتيني الهزلي بموضوع وبيئة رومانية.

- Moses Hadas, History of Latin Literature. Columbia University Press, 22 Mars 1952. pp. 50-51.

[37] إنيوس كوينتوس. أبو الشعر الروماني. ولد في 239 ق.م في رودياي كالابريا. وسّع آفاق اللغة اللاتينية إلى نطاقات كانت حصرا للغة اليونانية، أين قدّم تفسيرات حول الأصول الرومانية، وبالتالي مهّد الطريق للعصر الذهبي للشعر وأثّر على الشعراء العظماء مثل لوكريتيوس وفرجيل.

- Frank Northen Magill, Dictionary of World Biography. Volume 1. Taylor & Francis, Abingdon-On-Thames (Royaume-Uni). 23 Janv. 2003. p. 380.

[38] أبوليوس يستذكر المقطع: "من الضروري لنفسه أن يتفلسف، ولكن بكلمات قليلة حتى لا يرضيه "

- Quintus Ennius, The Tragedies of Ennius: The Fragments. Cambridge U.P, 1967. pp. 87-88.

لهذه المسائل الجانبية التي فرضت نفسها في دفاعي للردّ على متهميّ في حجر زاويتهم. كما يشجّعني لُطفك على تقديم هذا الالتماس الإضافي، أنك ستستمع بقدر ما أظهرتَ إلى الآن من كياسة واهتمام إلى كلّ ما عليّ قوله تَوطِئةً لإجابتي على التّهمة الرئيسية.

أنا أراهن على هذا الأمر بما أني سأتعامل بصرامة الرقيب مع هذه الخطبة الطويلة التي ألقاها بودنس بخصوص مرآتي، فقد كاد ينفجر وهو يتناول باتّقاد الطبيعة البشعة لجريمتي 'الفيلسوف يملك مرآة، الفيلسوف يمتلك في واقع الأمر مرآة'. أنا أقِرُّ بامتلاكها حتى لا تعتقد بإنكاري أنك طوّقتني باتّهامك. ألا يُسلَّم بأيّ حال من الأحوال أني في العادة أزَّيَّن أمام المرآة. لِم لا! لنفترض أني أمتلك دولاب أزياء، أتجرؤ على القول بأني معتاد على ارتداء الأردية الطويلة لممثّلي التراجيديا أو العباءة الزعفرانيّة لراقص الملهاة أو البدلة المبرقشة للمهرّج؟ لا أعتقد. هناك على خلاف ذلك الكثير من الأشياء التي أستمتع باستخدامها دون امتلاكها أصلا. فإن لم تكن الحيازة دليلًا على الاستخدام أو عدم الحيازة عدم الاستخدام، وإن كنتَ تشكو من حقيقة أني أنظر إلى المرآة بدلاً من أن أمتلكها، فعليك أن تمضي قُدما في تِبيان متى وبمحضر من قد سَبق وأن نظرتُ فيها، لأنه وكما تبدو الأمور فأنت تجعل من نَظرِ الفيلسوف إلى المرآة جريمةً أشنعَ من نَظرِ الجهلة في عُدّة كيريس المقدّسة[39].

14- والآن لئن نظرتُ فيها فرضا، أجريمةٌ هي أن يطّلعَ المرء على صورته ويحملها معه أينما يحلّ داخل مرآة صغيرة بدلا من إبقائها مخفيّة في مكان ما؟ أتجهلُ حقا أنّ لا شيء يُطري المرء أكثر من النظر إلى صورته؟ أنا أعلم أن أحبَّ الأبناء إلى قلب الآباء هم أولئك الذين يشبهونهم أكثر، وأنّ هذه التماثيل تُنصِّبها الدولة كجزاءٍ مستحقٍ لأولئك الذين خدموها حتى تَسعدَ قلوبهم بالنظر إليها، وإلا فما جدوى التماثيل والصور المنتجة من

[39] عدّة كيريس الغامضة. في معتقدات الرومان كانت كيريس ابنة ساتورن وأوبيس، وهي إلهة الفواكه والحبوب، وأوّل من علّم البشر فنون الحرث والزراعة. وهي تتمثّل بمشهد مهيب، بشعرها الذهبي الذي يرمز لسنابل القمح الناضجة، وبمشعل ضوئي تحمله في يدها اليسرى (وفقا للأسطورة فقد قام بلوتو باختطاف ابنتها بروسربين، فقامت كيريس بإشعال شعلة من نيران جبل إتنا البركاني للبحث عن ابنتها في أرجاء العالم). ونبات الخشخاش في يدها اليمنى (إذ أشفق جوبيتر لحالها وقدّم لها هذه النبتة لتنسيها في ألمها).

- Ovid. Metamorphoses. V. 314-487.

شتى الفنون؟ حتى وإن دافع أحدهم عن جدارة فنّه فليس له إلا أن يذعن أمام الطبيعة، كونها تتّسم ببراعة وحقيقة أكبر من الفنّ. لا شك أنّ جهودا حثيثة تُبذل لإعداد كل الصور التي تبتدعها يد الإنسان، ومع ذلك لا تبلغُ أبدا تلك الحقيقة التي تظهر في المرآة. فالطين يفتقر للحياة والرخام للنّضرة والرسم للثبات وجميعهم يفتقر للتفاعل الذي يأخذ على عاتقه مطابقة الأشياء بجدارة. في حين أنّ انعكاس الصورة في المرآة مدهش فهي لا تنفكّ تُريك ما تُريها بل تتجاوب وتتبع كل إيماءة من صاحبها، بل لا تنكفّ عن مرافقة عُمر مُبصريها منذ فجر صباهم حتى نهاية أجلهم؛ تُدرج كل التغييرات التي يُحدثها تقدّم السنين وتشارك الجسم كل عاداته المختلفة وتحاكي مُحيًّا الإنسان من تعابير الفرح والحزن المتغيّرة. أمّا الذي نُقولِبه من الطين أو نَصبُّه من البرونز أو ننقشُه في الحجر أو نَرسمُه بأقلام شمعيّة أو نلوّنه بالصبغ أو بعبارة موجزة كل محاولة من يد الإنسان للتّمثيل الفني يستنفذُ مرور الزمن شَبَهَها ويجعلها جامدة واهية تماما كمرأى الجثّة، ولا تتفوّق حتى الآن على كل الفنون التصويرية في محاكاة الواقع إلا براعة المرآة الصقيلة وروعة فنّها.

15- وهنا نقفُ أمام خيارين، فإمّا نأخذُ برأي أجيسيلوس اللاسيدايموني[40] الذي لم تكن لديه ثقة في وسامته ورفض السّماح برسم صورته أو نَحتِها، أو نتأسّى بالعُرف الشائع لبقيّة البشر الذين يُرحّبون بالصور سواء في النّحت أو الرّسم. فإن سلّمنا بهذا الأخير أيوجد ما يدفع أحدا لتفضيل رؤية صورته مُقولبة بالرخام بدلا من أن تنعكس على الفضة؟ في لوحة بدلا من مرآة؟ أم أنك تعتبره مُشينا أن يطّلع المرء بين الفينة والأخرى على مظهره؟ ألم يقل سقراط[41] في الواقع أنه حثّ أتباعه مرارا وتكرارا على تأمّل صورهم في المرآة ليجد من يطيب لهُ حُسنهُ محمدةً ولا يُلحِق بخُلقِه ضيرًا يسوء

[40] أجيسيلوس من أعظم ملوك اسبرطة. ولد في القرن 5 ق.م. يؤكد بلوتارخ أنّ أجيسيلوس كتب إلى شعوب أوروبا الإغريقية قائلا: "يجب ألا تكون هناك صورة عن نفسي مرسومة أو منحوتة أو مبنيّة".

- Plutarch, Apophthegmata Laconica. II. 26.

[41] أنظر:

- Diog. Laert. II. 5. 33.

خِلقته، ويُقدِم الذي يرى في ملمحهِ دمامةً على بذل مشقّةٍ لحجب ما يعتريه من مثلبةٍ بما يقدّمه من منقبةٍ؟ أترى أنّ علّامة الرجال في عصره ذَهبَ أبعد من ذلك حدّ استخدام المرآة كأداة لتهذيب النفس. من يجهل أيضا حقيقة ديموسثنس[42] أعظم سيّد في فن الكلام والذي كان يُرافع أمام المرآة وكأنه في حضرة أستاذ للبلاغة؟ فما أن استجمع هذا الخطيب الألمعيّ المسودّات العميقة للبلاغة في دراسة أفلاطون الفيلسوف وقرأ كل ما يمكن قراءته من أساليب الإقناع لدى الجدلي أوبوليدس[43] راهن في نهاية الأمر على المرآة لتعلّم فنّ الإلقاء. من عليه برأيك أن يولي عناية أكبر بطَلعته عند إلقاء كلمته؟ الخطيب حين يُماري خصمه أو الفيلسوف حين يعنّفُ رذائل البشر؟ من يجادل لبرهة أمام نفرٍ من المحلّفين رسّمتهم القرعة أم من لا ينقطع عن إلقاء الخُطب على مسامع الناس؟ أمن كان حول حدود الأراضي ينازعُ أم حول أشفار الخير والشرّ يجالسُ؟ هناك أسباب أخرى تجعل من الواجب على الفيلسوف أن ينظر إلى المرآة، فهو لا يهتمّ دوما بالتأمّل في شكله بل يتأمّل كذلك الأسباب التي أدّت إلى هذا الشّبه. فهل أصاب ايبيكوروس[44] في قوله بأنّ الصور تصدرُ منا كأنها نوع من سَلْخ الحيوانات ينقشر باستمرار من أجسادنا؟ فما أن تجدَ سطحا متينا وصقيلا حتى تنعكسَ من جرّاء الصدمة لتَعكسَ صورةً التفتت لتُقابل أصلَها. أم نأخذ بما تبنّاه فلاسفة آخرون بأنّ الأشعّة تنبعث من أجسادنا؟ يرى أفلاطون[45] أنّ هذه الأشعّة تنسابُ من مركز أعيننا

---

[42] يروي بلوتارخ أن ديموسثنس كان لديه تقنيات غريبة في تمارينه على الخطابة، فقد اعتاد التمرّن على إلقاء الخطب أثناء الجري أو الصعود إلى أماكن وعرة، أيضا في بيته أمام مرآة كبيرة يقف عندها ويلقي الخطابات.

- Plutarch, The Parallel Lives. Published in Vol. VII of the Loeb Classical Library edition, 1919. p. 27.

[43] أوبوليدس الملطي. عاش في القرن 4 ق.م. يقدّر أن يكون ديموسثنس تلميذه.

- Diog. Laert. II. 10. 4 .

[44] ايبيكوروس أو أبيقور. فيلسوف ولد بساموس حوالي 341 ق.م وتوفي في 270 ق.م. يُنسب إليه المذهب الأبيقوري والذي تحمل فلسفته عداء صريحا للأفلاطونية. أسّس مدرسة بأثينا تدعى "الحديقة" لنشر تعاليمه.

- A. E. Taylor, Epicurus. Рипол Классик, 1969. p. 20

[45] يقول أفلاطون: "وقد غرسوا في أعينهم (الآلهة) مجموعة من النيران التي لا تحترق، تسمى الضوء، وهي متجانسة مع الظلام. إذ نقدر على الرؤية في النهار لأنّ الضوء داخل أعيننا ينساب عبر مركزهم ليمتزج مع الظلام. ولذا فإنّ الخلط بين الاثنين ينقل حركات من كل شيء يلمسانه من خلال العين إلى الداخل، وهذا الذي يثير إحساس البصر".

- Plato, Timaeus. p. 46a.

وتختلط وتندمج مع النور الخارجي بدوننا، أمّا أرشيتاس[46] فهو يرى أنها تصدرُ منا دون تدخّل أيّ عامل خارجي، أمّا الرواقيون فهم يعزون تفعيل هذه الأشعة لتوتّر الهواء: وإن كان الجميع يتّفق بأنّ هذه الانبعاثات حين ترتطم بأيّ سطحٍ صلبٍ وصقيلٍ وساطعٍ فإنها ترتدّ عائدة إلى السّطح الذي انطلقت منه بطريقةٍ تكون فيها زاوية السقوط مساويةً لزاوية الانعكاس، وكنتيجةٍ لاقترابها وتلامسها خروجا من المرآة فهي ترتسمُ بداخلها[47].

16- ألا ترونه لِزاما على الفلاسفة أن يجعلوا من هذه المسائل موضوعات بحثٍ وتقصٍّ وأن ينظروا إلى المرايا من كل نوعٍ بتفحّص انفرادي، صلبةً كانت أم سائلة؟ طالما يُفتح بذلك باب النقاش في مسائل لا تُعدّ ولا تحصى. فلِم يتمّ مثلا عرضُ كل الصور والأشياء المنعكسة في المرايا المسطّحة بأبعادها الأصليّة تقريبًا بينما تظهر كل الأشياء أصغر في المرايا المحدّبة والكرويّة، وبعكس ذلك في حالة المرايا المقعّرة أين تبدو أكبر من طبيعتها؟ لِم أيضا وتحت أيّ ظروف يتم عكس اليسار واليمين؟ متى يبدو أن المرآة نفسها تسحب الصورة إلى أعماقها لتقذفها مباشرة إلى الأمام؟ لِم تقوم المرايا المقعّرة حين تعريضها بزوايا قائمة لأشعة الشّمس بإشعال الفتيل الموضوع أمامها؟ ما هو سبب الألوان الموشوريّة لقوس قزح أو ظهور صورتين نظيرتين للشمس في السماء أو العديد من الظواهر الأخرى التي عولجت في مجلّد ضخم من قبل أرخميدس السيراكيوزي[48]،

---

[46] أرشيتاس. فيلسوف من أتباع المدرسة الفيثاغورسية. يُقدّر مولده ما بين سنوات 435 و410 ق.م ووفاته ما بين 360 و350 ق.م. يؤكد سترابون مولده بتارينتوم.

- Carl Huffman, Archytas of Tarentum: Pythagorean, Philosopher and Mathematician King. Cambridge University Press, 23 mai 2005. p. 5.

[47] من المفترض أنّ النظريات الثلاثة تتوافق في شرح قدرتنا على رؤية صورتنا في المرآة، ولا تختلف إلا في الطريقة التي يفسرون بها انبعاث شعاع الرؤية نفسه. أنظر:

- Ibid., p. 555 - 556.

[48] أرخميدس السيراكوزي. واحد من أعظم علماء الرياضيات عبر التاريخ. ولد في 287 قبل الميلاد وتوفي في 212 قبل الميلاد. يحتمل أن يكون المؤلّف الذي تحدث عنه أبوليوس هو نفسه الذي أشار إليه ثيون الاسكندري من عملٍ قدّمه أرخميدس باسم θεωρία καθρεφτών كاتوبتريكا أو خصائص المرايا.

- Theon, Ptolemy's Syntaxis. I, p. 29, Halma.

- Olympiodorus, Arist Meteorolgica. II, p.94. Ideler. p. 211. 18, Busse.

الرجل الذي أظهر دقّة استثنائيّة وفريدة من نوعها في جميع فروع الهندسة، ولو أنه يدين بشُهرته نوعا ما لِفحصه المتكرّر واليقِظ للمرايا. لو أنك اطّلعتَ على هذا الكتاب فقط يا أيميليانوس، وما وضعتَ نُصب عينيك حقولك وتِلالها بل سجلّات وألواح علماء الرياضيات، لكُنتَ صدِّقني، وإن كان وجهك بشعا تماما كقناع ثياستس المفجع[49]، تنظرُ مليّا في المرآة عسى أن تُدرك نصيبا من المعرفة، وتُلقي محراثك أحيانا لتتعجّبَ من كل الأثلام التي خدشتْ بها التجاعيد وجهك. أمّا من جهتي فلن أتفاجأ بدوري إن آثرتَ حديثي عن تشوّه وجهك القبيح وصمتي عن أخلاقك التي تثير الاشمئزاز أكثر من خِلقتك. سألزم الصمت حيالها فأنا لستُ بطبعي عدوانيّ النزعة أساسا، كما يُسعدني أن أقول إنك إلى عهدٍ قريبٍ لربّما كنتَ أبيض أو أسود على الرغم من كل ما أعرفه، وحتى الآن لا أعرفك حقّ المعرفة والسبب في ذلك حياة الريف التي أبقتكَ في الظلام وانشغالي أنا بدراستي. ولكونك نكرة فقد حال السواد الملقى حواليك دون تمحيص شخصيّتك، ولكوني لا ألقي بالا لأفعال الآخرين السيّئة إذ آمنتُ دوما بأن إخفاء عيوبي أهمّ من ترصّدها لدى الغير، فقد وجدتَ في الظلام ميزة الذي يتفحّص خلف ستار، آخر اتّخذ موقفه في وضح النهار، إذ تترصّدُ بسهولة من ظُلمتك ما أفعل علنا وأمام الملأ، في حين أن دنيّة موقعك أخفتك عن الأنظار ونأت بك بعيدا عن الأضواء حتى أصبحتَ لا تُرى على الإطلاق.

17- حتى إنّي لا أدري ولا يهمّني أن أعرف أصلا إن كنتَ تملك عبيدا لزراعة حقولك أو أنك تفعل ذلك بتبادل الخدمة مع جيرانك، بينما تعلمُ أنتَ أني عتِقتُ في نفس اليوم ثلاثة عبيد في أويا، وقد عيّرني محاميك على ذلك رفقة العديد من أفعالي التي أطْلعتَهُ عليها. وبما أنه صرّح منذ برهة أني جئتُ إلى أويا برفقة ما لا يزيد عن عبدٍ واحدٍ، فأنا أتحدّاك أن تخبرني كيف كان بإمكاني أن أجعلَ من عبدٍ واحدٍ ثلاثة رجال أحرار؟ لعلّها واحدة من مآثري في السحر! أأصابك الكذب بالعمى أم أنه تأصّل فيك حتى أضحيتَ عاجزا عن قول الحقيقة؟ تقول 'أبوليوس أتى إلى أويا بعبد واحد'، وبعد ذلك ببضع

[49] أنظر:

- P.J. Davis, Seneca: Thyestes. Bloomsbury Academic, 19 déc. 2003. p. 17.

كلمات فقط أردفتَ قائلا: 'أبوليوس في نفس الوقت واليوم بأويا، أعطى لثلاثة عبيد حريتهم'. لم يكن حتى التأكيد بأني جئتُ بثلاثة عبيد وبأني عتقتهم جميعا ليكون جديرا بالتصديق. لكن لنفترض أني فعلتُ ذلك، ما الذي دفعك للنّظر إلى العبيد الثلاثة كأمارة على فقري بدلاً من اعتبار المُعتقين الثلاثة دليلا على ثرائي؟ أيميليانوس يا مسكين، أنت لا تملك أدنى فكرة عن كيفية اتهام فيلسوف، تلومني على قلّة خدمي في حين أنه كان عليّ حقاً أن أعزي ذلك إلى الفقر مهما كان زيفا، ليضفيني ذلك شرفا على شرفٍ. لأني أعلم أن الأمر لا يقتصر على الفلاسفة الذين أفتخر بكوني من أتباعهم بل جنرالات الشعب الروماني الذين زادتهم قلّة عبيدهم رِفعة وسناء. ألم يقرأ محاموك حقًا أنّ ماركوس أنطونيوس[50] لم يملك أيام قنصليّته سوى ثمانية عبيد في منزله؟ ناهيك عن كاربو[51] صاحب النفوذ المطلق في روما إذ كان لديه ما يقلّ بواحد عن هذا العدد؟ حتى مانيوس كيريوس[52] صاحب السجلّ الحافل بالانتصارات والذي قاد موكب النصر ثلاث مرات عبر بوابة روما لم يكن لديه سوى خادمين في انتظاره بالمعسكر؟ إذ كان في حقيقة الأمر عدد عبيد الرجل الذي اكتسح السابيين والسامنتيين وبيرهوس[53] أقلّ من عدد انتصاراته. أمّا ماركوس كاتو[54] فما انتظر أحدا ليروي عنه بل سجّل بنفسه في واحدة

---

[50] ماركوس أنطونيوس الخطيب. ولد في 143 ق.م. تولى مهمة قنصل في 99 ق.م.

- George, Alexander Kennedy (1972). A History of Rhetoric the Art of Rhetoric in The Roman World 300 BC-300 CE Volume 2. pp. 80-84.

[51] كاربو. قنصل 85-82 ق.م. أحد قادة الحزب الماریاني والمعارض الرئيسي لسولا بعد وفاة ماريوس.

- Christoph F. Konrad, Plutarch's Sertorius. UNC Press Books, 1994. pp. 68-79.

[52] ماريوس كيريوس دونتاتوس. ذكره أبوليوس في الفقرة العاشرة كشخصية ملحمية للشعب الروماني. تولّى منصب قنصل سنة 290 ق.م مع كورنيليوس روفينوس اللذين قادا حربا ضد السامنتيين وفازا بها، ثم تحرك ضد السابينيين الذين ثاروا ضد روما ففاز عليهم واحتفل بنصره الثاني في فترة ولايته الأولى كقنصل، وفي ولايته الثانية قاد الحرب ضد الملك بيرهوس في 275 ق.م ففاز عليه بعدما حرّك الجيش اتجاه سامنيوم وانتصر عليه قرب بينيفينتوم.

- William Smith, Abaeus-Dysponteus. J. Murray, 1880. pp. 991-993.

[53] بيرهوس الإبيري (319-272 ق.م). ملك مقدونيا وإيبيروس ومن أشد المعادين لروما.

- Jacob Abbott, History of Pyrrhus, Volume 1. Harper & Brothers, 1854.

[54] ماركوس كاتو. ولد في تيسكيلوم سنة 234 ق.م. شغل سنة 195 ق.م منصب قنصل.

- Plutarch, Lives. Translated from the Original Greek: With Notes Historical and Critical; And A Life of Plutarch, Volume 2. Hickman And Hazzard, 1822. pp. 132-158.

من خطاباته أنه لما ابتدأ كقنصل لهسبانيا لم يأخذ سوى ثلاثة عبيد من المدينة معه، ومع أنّ هذا العدد بدا غير كاف حين سكنَ في مقر إقامة رسمي إلا أنه أمر بشراء عبدين من السوق لخدمة الخِوان، لذا فقد أخذ خمسة عبيد إلى هسبانيا في المُجمل. لو صادف بودنس هذه الحقائق في دراسته لَعمدَ في ظني على إسقاط هذا الافتراء بِعيْنه، أو لَفضّلَ لومي على أنّ العبيد الثلاثة كان عددهم أكثر من اللازم لا أقلّ لرفقة فيلسوف.

18- ثم إن بودنس عاتبني على فاقتي بصريح العبارة، وهي تُهمة يحتفي بها فيلسوفٌ بل ويفاخر بها علنا. فقد ظلّت الفاقة منذ قديم الأزمنة أَمةَ الفلسفة، وَرِعةً في زُهدها قنوعة في أمرها، لا تستكين ضعفا، لا تبتغي إلا شرفا، لا يزيد تملّكها إلا حصانة من الثروة، لا ترى همّا في وجهها ولا تكلّفا في تبرّجها، كل الخير في نُصحها، فلا تنفخ في أحدٍ بالكبرياء أو عليه بأهواء خارج سيطرته، لا تثير في أحدٍ نزعة السلطة، لا ترغبُ ولا تنغمس في ملاذّ البطن والفرج. فعادةً ما تقتات هذه الخطايا من أرصدة الأثرياء. ولو أحصيتَ كبريات الجرائم التي حفظتها ذاكرة الإنسان فلن تجد بين مقترفيها شخصا فقيرا، وبالمقابل قلّما نجد في التاريخ أثرياء بين مشاهير الرجال، فإن ذَكرنا كل من نمجّدهم على مآثرهم لوجدناهم رُضّعا للفاقة من صباهم. هي الفاقة التي شَيّدت كل المدائن في الأيام القديمة وأمّ كل الفنون، هي العفيفة من كل خطيئة والمُغدقة بكلّ مجد، هي المتوّجة بكل شرفٍ بين الشعوب قاطبة. ولئن نقضنا بلاد الإغريق بتاريخها لتجلّت نزاهتها في أريستيدس[55] وبركتها في فوكيون[56] وشدّتها في ايبامينونداس[57]

[55] أرستيدس ابن ليسيماكوس. رجل دولة وجنرال أثيني من القرن 6 ق.م أُطلق عليه لقب 'العادل' أو 'السويّ'، كان معروفا بنزاهته مما أهّله لإدارة الأموال العامة، وهذا ما أثار الحسد لدى الأثينيين الذين تجمعوا لإدانته قصد نفيه باستخدام آلية أوستراكيا. عاش فقيرا ومات فقيرا رغم المنصب السامي الذي تولاه.

-Charles Knight, The English Cyclopædia: A New Dictionary Of Universal Knowledge, Volumes 1 À 2. Bradbury & Evans, 1858. p. 319.

[56] فوكيون. من تلامذة أفلاطون. ولد في القرن 5 ق. م. يروي بلوتارخ أنّ مينيلوس قدّم هبة من المال لفوكيون لكنه رفضها، فلما ترجاه أن يهب المال لابنه فوكوس أجابه بحكمة: "هل على فوكوس أن يُسند أمره إلى رصانة الحياة أين يكون إرثه كافيا، أو إلى هذا الحال أين لا شيء يكفي".

[57] إيبامينونداس. فيلسوف من أتباع فيثاغورس. جنرال طيبة العظيم الذي سقط في مانتينيا سنة 362 ق.م.

-Plutarch, The Parallel Lives. Published in Vol. V of the Loeb Classical Library edition, 1917. pp. 341-433.

وحكمتها في سقراط وبلاغتها في هوميروس. وهي التي شيّدت بنفسها إمبراطورية الشعب الروماني في بداياتها الأولى، ولها تُقيم روما حتى الآن طقوس شُكرٍ للآلهة الخالدة بإراقة الخمر على الأرض من مغرفة خشبيّة وبقرابين محمولة على قصعة من طين. فإن نُصّب للحكم في هذه القضية كايوس فابريسيوس وكنايوس سكيبيو[58] ومانيوس كيريوس الذين أُعطي لبناتهم بسبب فقرهم مهورًا من بيت المال وذهبن هكذا إلى أزواجهن يحملن معهن شرف منازلهن وثروة الدولة. أو بيبليكولا[59] مطارد الملوك أو أغريبا[60] مُصالح الشّعب واللذان أَخرَجا لفقرهما روما بأسرها لتجمع نقدا ثمن جنازتيهما. أو أتيليوس ريغولوس[61] الذي كفلت الدولة زراعة أراضيه لضيق حاله. لو مُنح باختصار

[58] في الحرب البونية الثانية كتب كنايوس إلى مجلس الشيوخ من هسبانيا يترجّاهم استبداله في قيادته، لأن ابنته بلغت سنّ الزواج ولم يكن باستطاعته تزويدها بمهر أثناء غيابه عن روما. استلمت ابنته مهرها من الخزانة العامة.

- Val, Max. IV. IV. 10.

- Ammian, Marc. XIV. VI. 11.

[59] بيبليكولا فاليريوس. قنصل روماني من القرن 6 ق.م. قال عنه المؤرخ اليوناني العريق ديونيسيوس: "هذا الرجل، على الرغم من أنه كان من أول أربعة أرستقراطيين ممن أزاحوا الملوك وصادروا ثرواتهم، وعلى الرغم من أنه حاز أربع مرات على السلطة القنصلية إذ انتصر في حربين بأقلّ خسائر واحتفل بالنصر مرتين [...] وعلى الرغم من أنه كان لديه مثل هذه الفرص لتجميع الثروة [...] إلا أنه لم يُهزم بالجشع، تلك الرذيلة التي استعبدت كل الرجال والجهود للتصرّف بانحطاط". كما يقول المؤرخ الشهير تيتوس ليفيوس: "بيبليوس فاليريوس بشهادة الجميع كان الروماني الأول في فنون الحرب والسلام وقد مات في ذروة مجده، ولكنه كان فقيرا جدًا لأن يتحمّل مصاريف الجنازة التي افتقد ثمنها، لذلك دُفن على نفقة الشعب، ونَعتهُ العجائز كما فعلوا لبروتوس".

- Denys d'Halicarnasse, Antiquités Romaines. V. 48.

- Livy, II. 16. 7.

[60] أغريبا مينينيوس ملقب بلاناتوس. جنرال وقنصل روماني من القرن 6 ق.م. يرتبط اسمه بما حدث في عام 503 ق.م، إذ كان عامة الناس غاضبين من معاملتهم السيئة من الأرستقراطيين لدرجة أنهم أخلوا المدينة وأقاموا معسكرًا في التلال. أُرسل أغريبا للتفاوض معهم، أين أخبرهم بمثل شهير لحد الآن 'الأعضاء ضد البطن'. وافتكّ من الأرستقراطيين تنازلا كبيرا من أجل فضّ النزاع بإنشاء منصب جديد 'منبر الشعب' يسهر على ألا تُنتهك حقوق العامة. مات في فقر مدقع لدرجة أنّ المواطنين ساهموا في تكلفة دفنه، ومجلس الشيوخ وفّر على نفقة الجمهورية مكانًا لقبره.

- Charles François Lhomond, De Viris Illustribus Urbis Romae A Romulo Ad Augustum. Alfred Mame Et Fils, 1877. pp. 23-24.

- Livy, II. 33. 2.

[61] أتيليوس ريغولوس أو سيرانوس. كان فقيرا للغاية بالرغم من منصبه، لدرجة أنه أعال نفسه وزوجته وأطفاله من مزرعة صغيرة كان يحرثها خادم واحد. فور سماعه بوفاة هذا الخادم، قام بمراسلة مجلس الشيوخ طالبا منهم تعويضه في منصبه، بعد أن أصبحت ممتلكاته في خطر بسبب وفاة عبده وبأنّ وجوده في المنزل صار ضروريًا.

- Livy, Per. 18.

جميع الأبطال في رصيد الشعب الروماني من قناصلة ورُقباء وجنرالات متوّجين فرصة مقتضبة لاستئناف الحياة وأعيدوا إلى هاته الأرض لسماع هذه القضيّة، أكنتَ ستجرؤ في محضر العديد من القناصلة الفقراء على المضيّ قدما في تعيير فيلسوف بِفَقره؟

19- لعلّك ترى في كلوديوس ماكسيموس شخصًا مناسبًا لتهزأ من الفقر أمامه كونه ينعمُ بثروة كبيرة وترف هائل. أنت مخطئ يا أيميليانوس، مخطئ تمامًا في تقديرك لشخصه بأن تتّخذ هِبة ثروته بدلا من صرامة فلسفته معيارا لحكمك ولا تعقِل بأن الأرجح لشخصٍ يحمل عقيدة صارمة وتحمّلَ الخدمة العسكرية مطوّلا أن يُحابب ثروة معتدلة بكل أوجه قصورها على الفخامة بكل ترفها، وأن يلتحفَ هذه الثروات تماما كالرِّداء الوارف راحةً لا طولا. حتى الأخير، إن سَدَلهُ صاحبه وقام بِجَرّه أرضا سَيعلَقُ ويُردي القدم بقدر السوء في العباءة التي تتدلّى قُدّاما. فلا نفع في ما يفوق متوسّط أيّ شيء نستخدمه لتلبية احتياجات الحياة اليوميّة وهو عبء أكثر منه عونا. وهذا ما يجعل الثروات المفرطة كَدِفاف التوجيه في ضخامة وزنها إذ تُغرق السفينة بدل توجيهها، فلا ينفعُ حجمها بل يسوءُ حَشوُها. وقد لاحظتُ من بين الأثرياء أنّ الأجدر بالثناء يعيشون دون صخبٍ ورفاهٍ، إذ يخفون مواردهم ويديرون ممتلكاتهم الهائلة دون كِبرٍ وتباهٍ، ويظهرون كأناس فقراء تحت ستار اعتدالهم. فإن كان الأغنياء أنفسهم يتّخذون مرأى الفقر من باب التواضع، لِم نخجل به وقد عِشنا حقيقته لا ظاهره؟

20- حتى إني قد أنخرط في جدال معك حول كلمة الفقر. منبّها على أنّ الفقير ليس ذاك الذي يرفض الكماليات ولديه تحت تصرّفه كل الضروريات، تلك التي لا تجود بها الطبيعة كثيرا. فإنما يلقى فيْضا من ينشدُ غيْضا، ومن يبتغي بَرْضا يحظى بما يُرضيه. ولذا لا يُقاس ثراء الإنسان في أراضيه وأملاكه بل في نفسه، لأنّ الجشَع حين يُبقيه محتاجا وفي تعطُّشه للربح نَهِما، فلن تجلبَ له حتى جبال الذّهب الرضا، بل سيستجدي المزيد دوما ليزيد ممّا لديه أصلا، وهذا لعيني هو المكنون الأصيل للفقر. لأنّ الرغبة في امتلاك أيّ شيء تنبع من فكرة الاحتياج، ولا تهمّ ممتلكاتك في اتّساعها إن رَحُبت بما فيها

وضاقت عليك. فقد كان مُلك فيلوس[62] أقلّ بكثير من لايليوس[63]، ولايليوس من سكيبيو[64]، وسكيبيو من كراسوس[65] الثّري، ومع ذلك لم يبلغ كراسوس نفسه مقدار ما رغب فيه. وعلى الرغم من أنه تجاوز كل الآخرين في الثروة إلا أن جشعه فَاقَه إلى أن بدا وكأنّه ثريٌّ أمام الجميع عدا نفسه. بينما لم يكن الفلاسفة الذين حدّثتُ عنهم يبتغون شيئًا يفوق ما كان تحت تصرّفهم، وبفضل الانسجام القائم بين رغباتهم ومواردهم فقد كانوا أثرياء وسعداء بحقّ. فالفقر وليد الافتقار والكفاية في الكفاف الذي ينبع من الاكتفاء. ولذا فإن سِمة الفقر هي الرغبة، وَسِمة الثروة هي الشبع. فإن شئتَ أن تَصِمني بالفقر يا أيميليانوس فعليك أن تُلصق الجشع بي أولا. لكن إن كان جوهري لا يفتقر لشيء، فأنا لا أعبأ كثيرا بما ينقصني من خيرات هذا العالم: فلا محمدة في اكتسابها ولا مذمّة في افتقادها.

21- لكن دعونا نُسلِّم بخلاف ذلك ولنفترض أني فقير. لئن بغضني الحظّ في الثراء، أو حدث معي كما يحصل عادةً باختلاس ميراثي من كفيلي أو نَهْبي من أحد الأعداء أو أنّ

---

[62] لوكيوس فيريوس فيلوس. قنصل روماني سنة 136 ق.م. كان رجلا بارعا واعتاد على إحاطة نفسه بعدد من المهتمّين بالثقافة الإغريقية.

- Marcus Tullius Cicero, Laelius. ed. by E.S. Shuckburgh. London: Macmillan And Co. 1885. p. 150.

[63] كايوس لايليوس الأصغر. ولد في 186 ق.م. قنصل روماني سنة 140 ق.م. وفقا لشيشرون كان يطلق عليه الحكيم بسبب نزعته الرواقية، وكان أديبا مفوّها تميّز بلغة لاتينية رائعة، كما أنه كان واسع الاطلاع على الثقافة الإغريقية.

- Ibid., p. 153.

[64] سكيبيو أيميليانوس أو بيبليوس كونيليوس سكيبيو أيميليانوس أفريكانوس الأصغر. رجل دولة وجنرال عُرف كأعظم قائد حربي في عصره. كان المسؤول على إسقاط قرطاج في الحرب البونيقية الثالثة، وكان واسع الاطّلاع على الثقافة الإغريقية. وعلى الرغم من أنه لم يترك أي كتابات باستثناء بعض الخطب، إلا أنه كان يمتلك قدرات أدبية عالية، وهذا ما مكّنه من مساعدة تيرنس في كتابة مسرحيّاته. يلخّص شيشرون إنجازاته في De Republica بالقول: "دمّر قرطاج، وتُوّج بالنصر، وشغل منصب الرقيب، وليغاتوس لمصر وسوريا وآسيا واليونان، واختير حتى في غيابه قنصلا للمرة الثانية، ووضع حدا لحرب خطيرة، وسحق نومانتيا".

- Ibid., p. 159-160.

[65] ماركوس ليكينيوس كراسوس. يذكر بلوتارخ أنه ولد في 115 ق.م. سياسي وجنرال روماني، ساهم رفقة سولا وبومبي في إدارة الثلاثية 'التريومفيرا'. جمع ثروة هائلة لدرجة أن أطلق عليه أغنى رجل في روما.

- Gareth C. Sampson, Defeat of Rome in the East: Crassus, the Parthians, and the Disastrous Battle of Carrhae, 53 BC. Casemate Publishers, 16 juil. 2008.

والدي ما أورثني شيئا، أيليقُ وصمُ الإنسان بشيء لا يُعاب عليه في عالم الحيوان، في النسر أو الثور أو الأسد؟ إن أوتي الجواد من ميزات تجعلهُ ممتعا في ركوبه وحثيثا في جريه، فلا أحد سيلقي اللائمة على فقر زاده. أتتّهمني إذن لا على قولٍ أو فعلٍ فاضح بل لبساطة مستقرّي ومقامي، لقلّة عبيدي وتقشّفي في طعامي وتواضعي في ملبسي وقلّة قوتي؟ فإن لم تملأ خدمتي ومؤني وملابسي عينك فإني أراها وفيرة عكس ما تراه تماما، بل تفيضُ عمّا احتاج إليه أصلا، حتى إني أرغبُ في تقليلها لأنّ سعادتي في انصرافي عن ملهاتها. فالروح كالجسد تكتسي في العافية أخفّ الثياب وفي العيب تلفُّ نفسها، وإنه لمؤشّرٌ صريحٌ على الضعف أن تغشاك الكثير من الرّغبات. وإنّا بِحقّ السماء نعيشُ كما نسبحُ، كلّما كُنا أخفّ حِملا كان أفضل لنا، فلا تفرِقُ هذه الحياة الجائشة عن المحيط العاصف إذ تُغرقنا ثِقال الأحمال وتطفو بنا خِفافها. وفي هذا السياق أجدُ الآلهة تتفوّق على البشر وبجدارة، لاسيما وأنهم لا يفتقرون إلى أيّ شيء. فما أشبه بالآلهة مَن تقلّ احتياجاته مِن بني البشر.

22- ولذا فقد أثرتَ إطرائي بتعييرك لِمُلكي القائم حسب قولك على خُرجٍ وعصا. فيا ليت لي روحا إبّاء تصرفني عن هذا المتاع بِرُمّته وتُغنيني بتلك العُدّة التي ضحى من أجلها كراتس[66] بكل ثروته! كراتس هذا - سأخبرك وإن كنتُ أشكّ في تصديقك لي يا أيميليانوس - كان سليل أُسرةٍ ميسورة من خيرة أهل طيبة، دَفعهُ حُبُّ هذه العُدّة التي ألبسْتَها ثوب الجريمة أن وهبَ منزله الرّحب والفخم لأهالي بلدته، وعفا عن عبيده من أجل خُلوتِه، واكتفى بعصا واحدة بدل بساتينه وأشجارها المثمرة، وقايض ضيعاته الغنّاء بِخُرجٍ صغيرٍ واحد أشاد به بعدما استحسن فائدته بشكل جليّ مُحوّرا من أجله أبياتا لهوميروس تغنّى فيها بجزيرة كريت. وها أنا ذا أورد لك الأسطر الأولى حتى لا تعتقد أني لفّقتُ هذه الحكاية لأخدم بها قضيّتي:

---

[66] كراتس. ذكره أبوليوس في فلوريدا، وحفظ ديوجنس لايرتيوس بقية أبياته عن خُرجه.

- Apuleius, Florida. 14.

- Diog. Laert. VI. 5. 1.

"هناك حاضرة تُدعى الخُرج، وَسطَ دخان بِدُكنة النبيذ".

تلي هذه الأسطر أبيات أخرى رائعة لو قرأتَها ستحسدني على خُرجي أكثر من حسدك لي على زواجي ببودونتيلا. فإن كنتَ تعيبُ الفلاسفة على عصاهم وخُرجِهم، ربّما تلوم الفرسان أيضا على طَقمِهم المزخرف والمشاة على دروعهم وحملة الألوية على بيارقهم والقادة المنتصرين على مركباتهم المجرورة بأربعة أحصنة بيضاء وأرديتهم المزركشة بالسّعف. ولو أنّ العصا والخُرج لا يحملهما الأفلاطونيين فعلا بل يوشّى بها الكلبيّون في شاراتهم، فقد كانا لديوجنس وأنتيستنيس[67] بمثابة التاج لدى الملك والعباءة الأرجوانية للجنرال وقلنسوة الكاهن وَمِحجن العرّاف. بل في جدال ديوجنس الكلبي مع الاسكندر الأكبر حول أحقيّة المُلك بينهما، تباهى بعصاه وكأنها صولجان حقيقي. هرقل نفسه الذي لا يُقهر - بما أنك تحتقرُ أمثلتي وكأنها مستقاة من حياة التسوّل - هرقل جوّاب الأقطار ومبيد الوحوش ومحتلّ الأجناس والإله في الأخير، لم يمتلك إلا قشرة ثيابٍ وعصا لرِفقته في تلك الأيام وهو يطوف بالأرض، ومع ذلك ما انتظرت السماء مطوّلا حتى تمنحه القبول في مصاف الآلهة جزاءً على فضيلته.

23- فإن رُحتَ تزدري هذه الأمثلة ودعوتني للخوض في مقدار ثروتي لا لقضيّتي، حتى أضع حدًّا لجهلك في أمرٍ لا أخاله يخفى هو الآخر عليك، فأنا أقرُّ بأن والدي ترك لي ولأخي ما يَقلُّ بقليل عن مليوني سيسترس وهو مبلغ كَفَلني في رحلاتي الطويلة ودراساتي المستمرّة وسخائي الدائم، إذ ساعدتُ كثيرا أصدقائي، وذهبتُ بعيدا في امتناني لمعلّميّ حدّ توفير المهر لبناتهم في أكثر من مناسبة، وما كنتُ لأتردّد قطّ في إنفاق كلّ دانقٍ من ثروتي للحصول على ما هو أفضل من المال الذي لا أعبأ به. أمّا أنتَ وأمثالك من الجهلة الأجلاف يا أيميليانوس فالثّروة هي التي تصنع الرجال. حالُكم كحال الأشجار العقيمة التارزة التي لا تفيضُ ثَمرًا، فهي لا تُساوي شيئا لو ما احتوت جذوعها خشبا. فاحرص

[67] أنتيستنيس. مؤسس المدرسة الفلسفية الكلبية. ولد حوالي 444 ق.م وتوفي سنة 366 ق.م وهو تلميذ سقراط ومعلّم ديوجنس. وفقا لهذا الأخير فقد أخبرهم ديوكليس أنه أول من ضاعف العباءة واكتفى بثوب واحد ولا يحمل سوى خُرجٍ وعصا.

- Diog. Laert. VI. 1.

أرجوك يا أيميليانوس ألا تُعيّر مستقبلا أيَّ شخصٍ على فقره مُذ أمضيتَ أنتَ بنفسك لتهيئة الأرض ثلاثة أيام في الحرث وحدك بمساعدة عُكموسٍ بائسٍ تحت حمامٍ من الأمطار الغزيرة في تلك المزرعة المُزرية في زاراث[68] والتي كانت كلّ ما تركه لك والدك، فما ابتسمت لك الثّروة إلا مؤخرا في شكل ميراثٍ غير مستحقٍ تماما انقلبَ إليك بسبب الوفيات المتكرّرة لذويك، والتي تدين لها أكثر بكثير من وجهك البشع بِكُنيتك خارون[69].

24- أمّا عن مسقط رأسي فهو يقع على تخوم نوميديا وجيتوليا، ولك أن تتحرّى ذلك من كتاباتي لأني صرّحتُ بأني 'نصف نوميدي، نصف جيتولي' في خطابٍ ألقيتُه بنفسي أمام الملأ وعلى شرف الموقّر لوليانوس أفيتوس. فأنا لا أرى حرجا في الأمر، خصوصا وأنّ الحالَ لا يفرِقُ بيني وبين قورش الأكبر[70] الذي ينحدر من أصلٍ مختلطٍ 'نصف ميدي، نصف فارسي'. والمفروض ألا نثمّن منشأ الرجل بل خُلقه، وألا نرى في أيّ طرف من العالم بل وفق أيّ نهجٍ ارتأى عيش حياته. يحقُّ للسّبّاء والبقّال رفع قيمة بضاعتهم بالإشهار لميزة التربة التي انبثقت عنها كما هو الحال مثلا مع نبيذ ثاسوس وملفوف فليوس، إذ لا شكّ أنّ مذاق تلك الخيرات من الأرض قد طاب للغاية بسبب خصوبة المنطقة التي ترتّبت عن رطوبة الطقس واعتدال الرياح ودفء الشمس وثراء التربة. أمّا في حالة الإنسان فإن الروح تلجُ مسكن الجسد من الخارج، فهل في وِسعِ ظروفٍ كتلك

---

[68] زاراث. يقدر أن تكون ضاحية في أويا 'طرابلس الحالية'. يقدّر أن يكون الاسم في أصله أمازيغيا، إذ يعني وفقا لغابريال كامبس في كتابه "عن أصول البربر" أحد الفواكه، التين بالتحديد.

- A. Pellegrin, Essai Sur Les Noms De Lieux d'Algérie Et De Tunisie. Etymologie, Signification, Préface De M. G. Mercier. Tunis, Editions S.A.P.I, 1949. p. 73.

- Camps G., Aux Origines De La Berbérie: Massinissa Ou Les Débuts De l'Histoire. Alger, 1961. p. 90.

[69] خارون. في الميثولوجيا هو مرشد الأرواح في العالم السفلي، ابن الآلهة ايربوس ونيكس. وهو الذي يقود أرواح الموتى في عبّارة عبر نهر ستيكس وأشيرون، ولا يحمل من لا يدفعون جزية ولذا دأب القدماء على وضع قطعة من ذهب تحت ألسنة الموتى قبل دفنهم. تم تجسيده كشيخ عجوز بلباس رثّ مقطّع وبلحية غير مصفّفة وبجبهة مخدوشة بالتجاعيد.

- Mary Ann DWIGHT, Grecian And Roman Mythology. With an Introductory Notice By ... T. Lewis And A Series of Illustrations in Outline. New York: George P. Putnam, 155 Broadway, And 142 Strand, London. 1849. pp. 60-61.

[70] قورش الأكبر أو قورش الثاني. ولد حوالي 599 ق.م في أنشان وهو مؤسس الإمبراطورية الفارسية.

- Sam Kerr, Cyrus the Great - Celestial Sovereign. Lulu.com, 30 août 2015. p. 23.

أن تزيدَ أو تجتثَّ من فضائله أو رذائله؟ أكان هناك زمنٌ أو مكانٌ لم تُقدِّم فيه الشعوب فيضا من العقول، وإن كانت بعضها تبدو أغبى وأخرى أذكى من غيرها؟ فقد وُلِد آناكرسيس[71] الحكيم بين السكيثيين الأغبياء، ووُلِد بين الآثينيين الدّهاة ميليتيدس[72] الأحمق. وما أقول هذا بدافع الخجل من وطني فقد كُنّا بلدة من عهد سيفاكس[73]، وبانهزامه انتقلنا بتزكية الشعب الروماني لسيادة الملك ماسينيسا[74]، وبتوطين الجنود المخضرمين في الأخير، أصبحنا بفضل مؤسّسينا الثانيين مستعمرة من الأكثر تميّزا[75]. في هذه المستعمرة نفسها بلغَ والدي منصب دمفير[76] وأصبح المواطن الأبرز في المكان بعد

---

[71] آناكرسيس السكيثي. فيلسوف شهير ولد في القرن 7 ق.م. أشتهر في أثينا إلى درجة أن تمّ اعتباره واحدا من الحكماء الإغريق السبع.

- Renate Rolle, The World of The Scythians. University Of California Press, 1 Jan 1989. p. 129.

[72] ميليتيدس. شخصية تهكّمية، يضرب به الأثينيون المثل في الحمق والغباء.

- Aelian, Historical Miscellany. Translated by Nigel G. Wilson. Loeb Classical Library 486. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997. p. 366.

[73] سيفاكس. ملك الماسايسيل في نوميديا. حارب جنبا إلى جنب مع القرطاجيين في الحرب البونيقية الثانية (218-201 ق.م)، انهزم وألقي عليه القبض سنة 203 ق.م. بعد انهزامه تولى ماسينيسا الحكم في نوميديا.

- Livy: Ab urbe condita, vol. VIII, bks. xxviii-xxx Loeb Classical Edn, pp. 73-99; 173-225; 405-421.

[74] ماسينيسا. ولد حوالي 240 ق.م. هزم غريمه سيفاكس بمساعدة الرومان، وحكم نوميديا بسلام طيلة 50 سنة إلى أن توفي في سنة 148 ق.م في السنة الثانية من الحرب البونيقية الثالثة.

- John Denison Champlin, The Young Folks' Cyclopaedia of Persons and Places. H. Holt And Company, 1880. p. 524.

[75] مادورا / مادور أو مداوروش الحالية في ولاية سوق أهراس بشرق الجزائر. مدينة اشتهرت بالعلم والفلسفة والفنون بنوميديا. أنجبت أبوليوس وماكسيم النحوي وفيليكس كابيلا (وفقا لكاسيودوروس) كما درس بها القديس أوغستين في صباه. يصف أبوليوس نفسه بالفيلسوف المادوري في كتاباته، كما تم تأكيد موقع المدينة عبر نقيشة أثرية رومانية بالموقع الأثري والتي حملت عبارة: 'المستعمرة الفلافية المادورية لقدماء المحاربين'، وفوق ذلك تمّ إيجاد نقش أثري من العالم الفرنسي Gsell سنة 1918 والذي رفعه مواطنو مادورا على شرف أبوليوس معتبرين إياه جوهرة المدينة.

- I.L.Alg., 1, 2152.

- I.L.Alg., 1, 2115.

[76] دمفير أو Duoviri أو Duumvir. منصب إداري يجسّد مبدأ الزمالة في الحكامة الرومانية للمستعمرات والبلديات والتي كان يديرها في كثير من الأحيان شخصان يحملان معا هذه المهام. يفترض أن يكون والد أبوليوس أحد الحاكمين لمستعمرة مادورا.

- Paul J. du Plessis, Clifford Ando, Kaius Tuori: The Oxford Handbook of Roman Law and Society. Oxford University Press, 2016. p. 126.

مروره على جميع مكاتب الشّرف البلديّة. أمّا أنا فقد نجحتُ بعد التحاقي لأوّل مرة بمجلس الشيوخ البلدي في بلوغ مقام والدي في المجتمع، ولم أكن كما آملُ خلفًا سيئا بأيّ حال من الأحوال بيد أني أحظى نظير صون مكانتي بالشّرف والإجلال. لِم أذكر هذا؟ كي يتسنّى لك يا أيميليانوس أن تكون في المستقبل أقلّ غضبا مني وأن تكون سلسا أكثر في الصّفح عني بسبب إهمالي بما يكفي لعدم اختيار زاراث العتيقة مسقطا لرأسي.

25- ألا تستحون من توجيه هكذا اتّهامات بمثلِ هذا التعصّب قِبلَ قاض كهذا، والرّمي بدعاوٍ طائشة ومتضاربة في ما بينها، واتّهامي بأمرٍ ونقيضه في آن واحد؟ أما وجدتُم في ادّعائكم مُطلق التناقض إذ ترون في خُرجي وعصاي دليلا على الترمّت وفي قصائدي ومرآتي دليلا على الطيش؟ في امتلاك عبدٍ واحدٍ دليلا على شُحّي وفي امتلاك ثلاثةٍ دليلا على بذخي؟ حتى إنكم شجّبتموني على بلاغتي اليونانية وولادتي الأعجمية؟ أفِيقوا من سُباتكم وتذكّروا أنكم تتحدّثون في محضر كلوديوس ماكسيموس، أمام رجلٍ صارمٍ يتعنّى شؤون الإقليم بأسره. أما توقّفتم للحظة عن طرح الاتّهامات السخيفة وانطلقتم في إثبات ما أدرجتموه في لائحة اتّهامكم من جرائم مروّعة وشعوذة مقيتة ومنكرات السحر الأسود! لِم تخبو أصواتكم في ذِكرِ الحقائق وتقوى في إحداث الضجيج؟

سأتعامل الآن مع تهمة السحر ذاتها، فما التقطتُم أنفاسكم وأنتم تنفخون في جَمرتها حتى أثرتُم نائرة الجميع ضدي، لكنكم خيّبتم آمال الجميع بخرافاتكم من حكايات العجائز، فأضحت النيران التي أشعلتها اتهاماتكم كأَنما يأْكل بعضُهَا بعضًا، سكنَ لهيها وبقيت جذوتها تحرق في صدوركم. أما رأيتَ يوما يا ماكسيموس نارا تستعر في الهشيم فتُثير بألسنتها أصوات المعمعة والفرقعة، لكن سرعان ما تخبو بنفاذ ضَرمِها الواهي فلا تتركُ خلفها أيّ حطام؟ هكذا هو اتّهامهم. فقد أشعلوه بالتجريح ونفخوا فيه بالأقاويل لكنهم يفتقرون لوقود الحقائق، وبمجرّد أن تُطلِق حُكمكَ فهو معدٌّ كي لا يترك خلفَهُ أيّ أثرٍ. وطالما ارتكز أيميليانوس في افترائه على تهمة السحر، فبودّي أن أسأل محاميه الجهابذة: ما هو مفهوم الساحر بدقّة؟ فإن كان ما قرأتُه صحيحا لدى الكثير من

المؤلّفين بأن لفْظ الساحر عندنا يعني الكاهن في بلاد الفرس[77]. فما الجرمُ في أن يكون المرء كاهنا وله من المعرفة والعلم والمهارة ما يُمكّنه من أداء كل الشعائر الدينية والمراسيم القربانية ومناسك العبادات، إن كان السحر في الأخير ما حدّدهُ أفلاطون في وصفه لأساليب الفرس في تعليم أمرائهم الصغار؟ أنا أتذكّر حرفيا كلمات هذا الفيلسوف الإلهي فاسمح لي أن أستذكرها لك يا ماكسيموس: "عندما يبلغ الصبي سن الرابعة عشر، يتمّ إيداعه لدى رجال يُدعون باسم حُكماء المَلكيّة، هم أربعة في العدد، ويتمّ اختيارهم من أفضل مشايخ بلاد الفرس، أحدهم الأكثر حكمةً والآخر هو الأكثر عدلًا والثالث هو الأكثر اعتدالاً والرابع هو الأشجع. واحد من هؤلاء يُعلّم الصبي سحر زرادشت[78] ابن أهورا مَزدا[79] وهذا السحر ليس إلا عبادة للآلهة، كما يقوم أيضا بتلقينه فنون المَلَكيّة"[80].

---

[77] "ماسموغان". خلال أوقات الوثنية، كانت هذه الكلمة تعني الكاهن الأعظم في الديانة الزرادشتية، وهي تتكون من تركيب كلمتين أولها "ماس" والتي تعني العظيم، و"موغان" التي تعني الساحر.

- The Zend-Avesta: The Vendîdâd. Translated by James Darmesteter. Clarendon Press, 1880. p. XIVIII.

[78] زرادشت. ولد في مدينة الري بإيران. زعيم روحي أسّس ما يعرف الآن باسم الزرادشتية. يقدّر الكثيرون أنه الفيلسوف الأول على الإطلاق، كما تمّ وصفه بأنه أب الأخلاق والفيلسوف العقلاني الأول.

- Abraham Valentine Williams Jackson, Zoroaster the Prophet of Ancient Iran. Columbia University Press, 1899.

[79] يقول بلوتارخ: "أهورا مَزدا إله الضوء وأهريمان إله الظلام في حالة حرب مستمرة مع بعضها البعض. أهورا مَزدا خلق ستّة آلهة، الأول من الفكر الصالح والثاني من الحقيقة والثالث من النظام، والباقي واحد من الحكمة وواحد من الثّروة وواحد من صانعي المتعة في ما هو مشرّف. أما أهريمان فقد خلق منافسين كانوا يساوون هؤلاء في العدد، ثم قام أورومازس بتوسيع نفسه ثلاث مرات من حجمه السابق، وسحبَ نفسه بعيدًا عن الشمس بقدر ما تبعد عن الأرض وزيّن السماوات بالنجوم .....".

- Plutarch, Isis and Osiris. Published in Vol. V of the Loeb Class Library edition, 1936. 46,47. pp. 113-115.

[80] يقول أفلاطون في ألكيبيادس: "عندما يبلغ الأولاد سبع سنوات من العمر، يتم إعطاؤهم الخيول ويحظون بدروس في الفروسية، ويبدؤون في تعلم المطاردة. وعندما يصل الصبيّ إلى أربعة عشر عامًا، يتم إيداعه إلى الأساتذة الملكيين كما يطلق عليهم هناك: هؤلاء الرجال الأربعة الذين تم اختيارهم كأكثرهم تبجيلا بين الفرس في سنّ الرشد. وهم الأكثر حكمة والأكثر عدلاً والأكثر اعتدالا والأشجع. أول هؤلاء المشايخ من يعلّمه تقاليد زرادشت السحرية نجل أهورا مَزدا وهي عبادة الآلهة، كما يعلّمه أيضا ما يخصّ الملك. أما العادل فيعلّمه أن يكون صادقًا طيلة حياته، والأكثر اعتدالًا ألا يتم التحكم فيه ولو بمتعة واحدة حتى يكون معتادًا على أن يكون رجلًا حرًا وملكًا حقيقيًا، وبالتالي سيّد كل شيء في نفسه قبل كل شيء وليس عبدا، في حين أن الأشجع يدربه على أن يكون جريئا وشجاعا ...".

- Plat, Alc. I. 121e, 122a.

26- أتسمعُ يا من تتّهم بطيشٍ فنّ السحر؟ إنه فنّ مبارك من الآلهة الخالدة، زاخرٌ بمناسك العبادة والصلاة، غاصٌّ بالتّقوى والحكمة في الأشياء الإلهية، مُفعمٌ بالشرف والمجد منذ اليوم الذي رسّخه فيه زرادشت وأهورا مَزدا، الكهنوت الأسمى لقوى السّماء. بل وإنه أحد المبادئ الأولى للتدريس الأميري، فلا يتقبّلون أيّ شخص جِزافا ليكون ساحرا، أكثر مما أمكنهم أن يتقبّلوه ملكا. هذا وقد كتبَ أفلاطون - إن جاز لي أن أقتبس منه مجددا - حين تطرّقَ لشخصٍ يدعى زالموكسيس الثراسي[81] وهو سيّد لهذا الفن: "ما الرّقى إلا كلمات أخّاذة"[82]. فإذا كان الأمر كذلك، فَلِم أُحرَمُ من تعلّم كلمات زالموكسيس الرائعة أو التقاليد الكهنوتيّة لزرادشت؟ لكن لو كان مفهوم الساحر عند متّهميّ مُشتقا من رأي العوام، كشخصٍ قادرٍ بفضل تواصله بالآلهة على فعل كل الأعاجيب التي يقوم بها بقدرة التعاويذ الخارقة، فإني أتعجّبُ وحقّ الآلهة من عدم خشيتهم مهاجمة شخص يقرّون له بالجبروت طالما يستحيل لهم الاحتماء من هذا المِجال الغامض والإلهي.

ترقّبا لأخطار أخرى قد نتّخذ وُسعنا من احترازات. فمن يُحِل قاتلا أمام القاضي يأتي إلى المحكمة بمعيّة رفقاء، ومن يتّهم مُسمِّما يحرصُ بشدة على ما يتناوله، والذي يتّهم نشّالا يشدّد الحراسة على ممتلكاته. أمّا في حالة شخصٍ يجرُّ ساحرا له من القدرات المروّعة ما تزعمون إلى مصير الإعدام، فهل بِوسع المرافقة أو التدابير أو الحرّاس أن يحولوا دون تعرّضه لنائبة لا مُبصر ولا رادّ لها؟ لا سبيل لإنقاذه طبعا. ولذا فإن الشخص الذي يؤمن بهذه التهمة هو آخر من يرفعُ هذه الدعوى.

---

[81] زالموكسيس. طبيب من ثراقيا وفقا لما يرويه أفلاطون في مؤلفه شارميداس.

- Plat, Charm. 156d.

[82] يفترض أنّ أبوليوس يستخدم بحيلة اقتباسا لأفلاطون من شارميداس: "لذلك قال: يا صديقي الرائع، عن طريق بعض السحر، وهذا السحر ما هو إلا كلمات مختارة ...".

- Ibid., 157a.

27- لكن الجهلة ما انفكّوا يُجرّمون الفلاسفة على أساس هذا الخطأ الشائع، إذ يعتقدُ بعضهم أنّ أولئك الذين يتقصّوْن أصول وظواهر العالم المادي هراطقة ويزعمونهم ملاحدة، ولكم في حالات أناكساغوراس[83] وليوكيبوس[84] وديموكريتوس[85] وايبيكوروس[86] وغيرهم من الفلاسفة الطبيعيين مثالا.

أمّا البعض فهم يدعون بالسحرة أولئك الذين جعلهم انغماسهم في مسائل التدبير وعبادتهم للآلهة ينجزون أمورا وكأنهم كانوا على علمٍ بما يفعلون، ولذلك اعتُبر

---

[83] أناكساغوراس. فيلسوف إغريقي ولد في كلازوميناي سنة 500 ق.م. يعتبر أب العلوم الحديثة. عاش وتعلم في أثينا من سنة 461 إلى 432 ق.م. اتّهم بالهرطقة وحُكِم عليه بالنفي سنة 432 قبل الميلاد بسبب تدخّل صديقه بيريكليس الذي جنّبه الإعدام، توفي في لامبساكوس سنة 428 ق.م عن عمر يناهز 72 عامًا.

- The Students; Or, Biography of Grecian Philosophers. By the Author of "Wars of the Jews," Etc. [i.e. Christian I. Johnstone. With Plates.]. John Harris, London. pp. 61-67.

[84] ليوكيبوس. فيلسوف إغريقي ولد في القرن 5 ق.م بإيليا وهو مؤسّس النظرية الذرية ومفاهيم الجزيئات. يخبرنا ديوجنس عن الكثير من أفكاره.

-Diog. Laert. IX. 6.

[85] ديموكريتوس. تلميذ ليوكيبوس. ولد بأفديرة سنة 460 ق.م وهو فيلسوف إغريقي اشتهر بلقب الفيلسوف الضاحك، يوجد ما يقرب من 70 مؤلفا له حول الفلسفة الطبيعية، والرياضيات، والموسيقى وغيرها، عارضه أرسطو بشدة في ما يخصّ أعماله ونظرياته حول الذرة. ولد في عائلة ثرية وكحال أبوليوس أنفق أمواله في أسفاره بين الأقطار لتحصيل المعرفة. اكتسب لقب الضاحك بسبب استهزائه الدائم بحماقة الناس.

- Richard D. McKirahan, Philosophy before Socrates (Second Edition): An Introduction with Texts and Commentary: An Introduction with Texts and Commentary. Hackett Publishing, 1 mars 2011. pp. 303-342.

[86] ايبيكوروس. فيلسوف إغريقي ولد في جزيرة ساموس سنة 341 ق.م. كرّس نفسه لدراسة أفلاطون وديموكريتوس، وقام بتطوير وتحديث نظرية ديموكريتوس 'أساس الأشياء'. لم يعترف بشيء في العقل عدا الأحاسيس، ولا شيء في الطبيعة سوى الأجسام، ولذا استفسر عن مكونات هذه المركبات، وبالتالي جاء إلى فكرة الذرّات الأبدية غير القابلة للتجزئة، والتي هي مبادئ كل الأشياء. توفي سنة 270 ق.م.

- Caleb Sprague Henry, An Epitome of The History of Philosophy ... Translated from The French, With Additions, And A Continuation of The History from The Time of Reid To the Present Day. Aberdeen: A Brown & Co; Edinburgh: A.&C. Black; Oliver & Boyd; London: Longman & Co. 1849. pp. 126-131.

ايبيمينيداس[87] وأورفيوس[88] وفيثاغورس وأوستانس[89] سحرةً، بينما ارتبطت شكوك مماثلة بالتطهيرات لايمبيدوكليس[90] وبشيطان سقراط وبالفضيلة لأفلاطون. ولذا فأنا أرى في إدراجي بين هؤلاء الأشراف تكريما لشخصي.

ومع ذلك فإني أخشى يا ماكسيموس أن تستندَ اتهامات خصومي إلى حكايات فارغة وطفولية وسخيفة، فتحمِلها أنتَ محمل الجدّ لمجرّد أن دفعوا بها دعما لقضيّتهم. يقول متّهِمي: 'لِمَ بحثتَ عن أنواع محدّدة من الأسماك؟'. ألا يُتاح للفيلسوف أن يُرضي شغفه في المعرفة بما يُباح للشّرِه استخدامه في إرضاء نَهمِه! هو يسأل: 'ما الذي دفعَ امرأة حُرّة إلى الزواج منك بعد ثلاثة عشر عاما من الترمّل؟'. وأنا أجيب: أليس العجب بالأحرى في بقائها أرملة طيلة هذه السنوات! 'لِم أعربتْ عن آراء خاصة في رسالة قبل أن تتزوّجك؟'.

---

[87] ايبيمينيداس. فيلسوف وشاعر إغريقي ولد في كنوسوس بجزيرة كريت في القرن 6 ق.م. وفقا لديوجنس فقد اشتهر في كل بلاد الإغريق بسبب نومه في كهف مدة 57 سنة كاملة عندما ذهب ليبحث عن خروف ضال في الريف استجابة لطلب أبيه، عندما استيقظ وجد أخاه قد أضحى شيخا عجوزا. أرسلت له أثينا تترجاه تطهيرها من الوباء بناء على توصية من الكاهنة بيثيا، فطهّر مدينتهم وأوقف الطاعون من الانتشار.

- Diog. Laert. I. 10.

[88] أورفيوس. شاعر وموسيقي أسطوري. كرّمه الإغريق كأعظم جميع الشعراء والموسيقيين، إذ قيل: "بينما اخترع هيرميس القيثارة، فقد أتقنها أورفيوس". كما قيل أيضا إنّ موسيقى وأغاني أورفيوس يمكن أن تسحر الطيور والأسماك والوحوش البرية وتدفع الأشجار والصخور إلى الرقص وتحوّل مجرى الأنهار.

- Ovid, Metamorphoses. 11.

[89] أوستانس. يقدّر أن يكون ساحرا من ديانة زرادشت. يقول بليني الأكبر: "أول شخص، بقدر ما أستطيع التأكد، والذي كتب عن السحر وما زالت أعماله موجودة، كان أوستانس الذي رافق الملك الفارسي زركسيس في بعثته ضد بلاد الإغريق. كان هو أوّل من نشر كما حصل، جراثيم هذا الفن البشع، ملوّثا به جميع أنحاء العالم التي مرّ بها الفرس، كما يذكر المؤلفون الذين قاموا باستفسارات جادّة في هذا الموضوع زرادشت ثانٍ، وهو من مواطني بروكونيسوس، على أنه كان يعيش قبل زمن أوستانس بقليل. أنّ هذا هو نفسه أوستانس الذي ألهم الإغريق على وجه التحديد، ليس بالعشق فحسب بل بالشغف لفنّ السحر، هو حقيقة لا شكّ فيها ... ".

- Plin, Nat. 30.2.

[90] ايمبيدوكليس. فيلسوف إغريقي من أتباع فيثاغورس. ولد حوالي 484 قبل الميلاد بأجريجنتوم في صقلية. كتب قصيدة من 3000 سطر بعنوان 'التطهيرات' καθαρμοί. وصفه أرسطو بمخترع فن الخطابة وأنه من مدرسة هوميروس، قوي في الإلقاء. يؤكد ساتيروس أنه كان خطيبا وطبيبا، وكان الفيلسوف غورغياس الليونتيومي تلميذه، يروي ساتيروس نقلا عن غورغياس أنه كان شاهدا على قيام ايمبيدوكليس بمآثر سحرية. يؤكد هيراكليدس وأرسطو أنه توفي عن عمر 60 سنة.

- Diog. Laert. VIII. 2.

هنا أتساءل: أيُعقل أن أطلب من أحدٍ أسباب الآراء الشخصيّة لآخر! ثم يتابع: 'مع أنها كانت تفوقك سنّا إلا أنها لم تستخفّ بشبابك'. في هذا الكلام دليل كافٍ على أنّه لم تكن هناك حاجة إلى السّحر لإقناع امرأة بالزواج من رجلٍ، أو أرملة بالزواج من أعزب يصغُرها ببضع سنوات! هذا وتوجد تُهم أخرى لا تقلّ عن سابقتها طيشا: 'أبوليوس يحتفظ بشيء غامض في منزله يعبده بوقار'. أليس الجُرم في عدم وجود ما يُعبد على الإطلاق! 'سقط صبي على الأرض في وجود أبوليوس'. ماذا لو سقط شابٌ أو حتى شيخٌ في وجودي من جراء مرضٍ داهمهُ أو لمجرد زَلَق الأرض! أتأمل بهذه الأدلّة إقامة البيّنة على اتّهامك بالسّحر: سقوط غلام بائس، زواجي من عقيلتي، مشترياتي من السّمك؟

28- كان بوسعي الاكتفاء بما قلتُ وخَتمُ مرافعتي دون أدنى خطر لولا تمادي متهميّ في استغلال الوقت، ما أتاح لي مُتّسع ما تشير إليه الساعة المائية من زمنٍ لا يحول دون تدبّرنا في اتهاماتهم تفصيلا بتفصيل. لن أنكر في أيّ منها صحيحها أو باطلها. سأفترض حقيقتها كي يتسنّى لهذا الحشد الكبير الذي التأم من كل صوب لسماع هذه القضية أن يتبيّن لا استحالة الدفع بتجريم حقيقيّ ضد الفلاسفة فحسب، بل تلفيق أيّ تُهمةٍ ضد أولئك الذين لا يؤثرون - بقدر ثقتهم في براءتهم - الدّفاع عن أنفسهم وإن كان بوسعهم إنكارها. ولذا سأستعرض حججهم بدايةً وأُثبت أنها لا تمتّ للسحر بصلةٍ، ثم أُظهر بعد ذلك أني ولو كنتُ أمهر ساحرٍ فرضا، لم أُقدِّم سببا أو مناسبة حتى أُدان على أيّة ممارسة منكرة. وفي خضمّ ذلك أواجه أكاذيبهم التي ساقوها لإثارة الشحناء ضدي بسوء اقتباسهم وتأويلهم المُغرض لرسائل زوجتي، وحول زواجي ببودونتيلا مُبينا أني أَهَلتُها حُبًا لها لا للمال، فقد عاد زواجنا على أيميليانوس بفائق الضُرّ والضرّاء طالما أبدى في إدارته لهذا الاتهام كل ما يفيضُ به من غضبٍ وَخَرفٍ وهذيان. فإن كشفتُ كل هذه الحيثيّات بوافر الوضوح والجلاء، فسأناشدك بعد ذلك يا كلوديوس ماكسيموس ومعك كل الحاضرين أن تستقصوا قولي، بأنّ الصبيّ سيكينيوس بودنس هرلي الذي يتّهمني عمّه الآن من خلاله وَبِرضاه قد سُلِب من كفالتي مؤخرا بعد وفاة أخيه بونتيانوس الذي كان أكبر منه سنًّا وأرفع خُلقا، وأنه كان ساخطا بشدة عليّ وعلى أمّه دون خطأ مني، وأنه

تخلّى عن دراسة الفنون المتحرّرة[91] وأطلق العنان لكل محظور. وبفضل التّنشئة التي تنعكس منه في هذا الاتّهام الخسيس فمن المرجّح أنه يشبه عمّه أيميليانوس لا أخاه بونتيانوس.

29- الآن وكما وَعدت، سألقفُ تخرّصات أيميليانوس واحدة تلو الأخرى بدءًا بهذه التهمة، والتي لابد وأنك لاحظتَ اعتلاءها مقام الشّرف عند خطاب المتّهِم كأنجع وسيلة لديه في إلصاق شُبهة الساحر بي، تُهمةُ أني طلبتُ من الصيّادين بعض أنواع الأسماك. أيّ نُقطةٍ من هاتين تثير الشكّ في السحر؟ أنّ الصيّادين سعوا ليزوّدوني بالسمك؟ أتريدُون مني أن أكلّف الصّاغة أو النجّارين بذلك؟ وأجعلهم تجنّبا لافتراءاتكم يغيّرون صَنْعتهم حتى يقوم النجار بصيد السمك لي ويأخذ الصيّاد مكانه ويحتطب خشبه؟ أم استنتجتَم أنّ الأسماك كانت مطلوبة لأغراض فضيعة لأني دفعتُ مقابلها ثمنا؟ لئن أردتُها لمأدبة، أيُفترض بي أن أحصل عليها مجانا! لِم لا تذهبون أبعد من ذلك وتتّهموني لأسباب كثيرة مماثلة. فكثيرا ما كنتُ أشتري النبيذ والخضروات والفواكه والخبز؟ ما أسّستم إليه يقضي بتجويع باعة الطعام جميعا، ومن سيغامر على الإطلاق بشراء الطعام منهم إن حُكِم على أيّ شخص يدفع أموالا ليحصل على المؤن أنه يبتغيها للشعوذة لا للأكل؟ ولكن إن لم يكن هناك ما يثير الشكوك في هذه الأقاويل، لا في دعوة الصيادين مقابل ثمنٍ إلى مزاولة نشاطهم المعتاد، أقصِدُ صيد الأسماك - وهنا أشير بالمناسبة أنّ الادّعاء لم يستعرض أيّا من هؤلاء الصيّادين، والذين هم في حقيقة الأمر مخلوقات من صُنع خيالهم - ولا في الثمن المدفوع مقابل سلعة متداولة - إذ لم يأتِ الادّعاء على ذِكرِ ثمنه مخافة تتفيه إن ذكروا مبلغا بخسا، وعدم تصديقه إن ذكروا

---

[91] الفنون المتحررة. اختلف التصنيف الدقيق للفنون الليبرالية في العصر الروماني، إلا أنّ الفضل يعود إلى الكاتب المادوري وعالم الفلك والموسوعي الشهير مارتيانوس مينيوس فيلكس كابيلا في القرن الخامس الميلادي في مؤلفه De nuptiis philologiæ et Mercurii أو 'عن زواج ميركوري وفيلولوجيا' الذي أهداه لابنه "ماريانيوس"، أين تمّ إحضار الفنون السبعة جاعلا منهن إشبينات لزواج ميركوري وفيلولوجيا، وهنّ النحو والجدلية والبلاغة والهندسة والحساب وعلم الفلك والإيقاع (الموسيقى).

- Remi, Remigii Autissiodorensis Commentum in Martianum Capellam. Libri I-II, ed. Cora E. Lutz, Leyde, Brill Archive, 1962. pp. 17-22.

مبلغا باهظا - إن كنتُ أقول إنه لا يوجد ما يثير الشّبهة في هذه الأمور، فليُجبني أيميليانوس ما لم ينضب مَعِينُه، ما الذي دهاهم لاتّهامي بالسحر!

30- يقول 'أنت تسعى لشراء السمك'. لن أنكر ذلك ولكني أسألك، أَمَنْ يفعل ذلك ساحر؟ ليس أكثر في رأيي من أن أسعى لشراء الأرانب أو لحم الخنزير أو ديوك سمينة. أم أنّ هناك ما تنفرد به الأسماك ويخفى عن الجميع باستثناء السّحرة؟ إن كنتَ تعرف ماهيته فمن الواضح أنك ساحر، وإن كنتَ تجهله فلابد أن تُقرّ بأنك دفعتَ باتّهام ذي طبيعة تجهلها تماما. وما يحدوكم في ذلك إلا جهلكم بكلّ المعارف بل وبكلّ الحكايات الشعبية، حتى تعجزوا عن تلفيق اتّهامات من شأنها أن تُظهِر بعض المعقوليّة! بأنّ ما يَلزم لتأجيج الحب هو مخلوقٌ باردٌ وبليدٌ كالسّمك أو أيّ شيء آخر مُستخرجٍ من البحر، ما لم تزجّوا طبعا بأسطورة بَعثِ فينوس من البحر دعما لكذبكم[92]؟ أترجّاك أن تُصغي إليّ تانونيوس بودنس فلربّما تكتشف مدى السُخف الذي أظهرته وأنتَ ترى في السمك دليلا على السحر. لو قرأتَ فيرجيل الخاص بك فستطّلع دون شكّ على أشياء مختلفة تماما تُستحضر لهذا الغرض، وهو بقدر ما أتذكّره يذكرُ الأماليد والأعشاب الفوّاحة واللبّان الذكر والخيوط الملوّنة، فضلا عن غصن يابس من الرند وطينٍ مُيبَّسٍ وشمعٍ مُذابٍ في النار، فضلا عن أشياءٍ أخرى ذَكرها في قصيدة أكثر خطورة[93]:

"تُلتمسُ الليلة القمراء لتُشذبَ بمنجلٍ نحاسي، أعشابٌ خطرةٌ تَقطرُ بِهُلامِ سُمٍّ ظلامي. وتُلتمس أيضا تلك التميمة العجيبة من جبين مهرٍ فور ولادته، والذي يُمزَّقُ منه قبل أن تنتشله والدته".

---

[92] يفترض أنّ أبوليوس يستذكر المقطع الملحمي للشاعر الإغريقي من القرن الثامن قبل الميلاد هيسيود في مؤلفه ثيوغونيا أو 'أنساب أو مولد الآلهة'، أين يروي أسطورة مولد الآلهة أفروديت/فينوس: "... وانتشرت رغوة بيضاء حولهم من اللحم الخالد، ومنه انبعثت عذراء. فاقتربت أولا من سيثيرا المقدسة، ومن هناك أتت إلى جزيرة قبرص، أين تراءت آلهة ضخمة وفائقة الجمال، ونما العشب حولها تحت قدمها الرشيقتين، يدعوها الآلهة والرجال أفروديت ....".

- Hesiod, Theogony. 173.

[93] الأبيات من ملحمة الإنيادة الشعرية لفيرجيل.

- Vergilius, Aeneid. IV. 513-516.

لكنك أنتَ المفتري على الأسماك تَنسبُ وسائل مختلفة تمامًا إلى السّحرة. سِحرٌ لا يُحذُّ من جِبَاه المواليد الجدد بل يُجذُّ من ظهور حُرشفيّة، ولا يُقتلع من أصعدة الأرض بل يُستخرج من أغوار المحيط، ولا يُجزّ بالمناجل بل يَعْلَقُ في شُصوصٍ. وحين يتحدّث فيرجيل عن الفنّ الأسود ختاما فهو يقدّم سُمًّا وأنتَ طبقا من الطعام، وحين يذكر أعشابا وفسائل تتحدّث أنتَ عن قشور وعظام، وحين يحصد المرج تُفتّشُ أنتَ في الموْج. كنتُ سأقتبس لفائدتك أيضا مقاطع مماثلة من ثيوكريتوس[94] وأخرى عديدة من هوميروس[95] وأورفيوس[96] ومن شعراء هزليّين وتراجيديّين ومن مؤرّخين لو لم ألاحظ للتوّ عجزك عن قراءة رسالة بودونتيلا المكتوبة باللغة اليونانية، ولذا لن أستشهدَ بأكثر من شاعر لاتينيّ واحد، وبأسطر سيتعرّف عليها كل من قرأ للايفيوس[97]:

"تعاويذ الحب يسعى لها السّحرة في كل البقاع، 'عقدة الحبيب' اختبروا، ومن أجلها خلطوا: شرائط وأظافر وجذور وأعشاب وفسائل. وبالعظاءة ذات الذيلين التي تَجذِبُ الحب، تظفِرُ بسحرٍ يُسعِدُ الفرس الصاهلة".

31- لو كان لك في الثقافة من خلاقٍ لطرحتَ هذه القضية بنحوٍ يمكن تصديقه، فما كان لك إلا أن تدّعي استخدامي لأشياء معروفة كهذه بدلا من الأسماك حتى تَحمِلَ

---

[94] ثيوكريتوس. شاعر إغريقي ولد سنة 300 ق.م في سيراكوز. يعتبر مؤسّس الأدب أو الشعر الرَّعوي. يفترض أنّ أبوليوس يستشهد بواحدة من قصائد إديلا القصيرة الثلاثين، الثانية تحديدا، والتي أتت تحت عنوان 'السحر' أين تقوم فتاة من كوان تدعى 'سيمايثا' بصنع تعويذة لتلقيها على عشيقها المهمل لها 'دلفيس' باستخدام عديد المواد.

- Theocritus, Idylls. II.

[95] يشير أبوليوس لرائعة الأوديسية لهوميروس وبالأخص ما وقع بين أوديسيوس ورجاله من جهة والساحرة كيركي من جهة أخرى.

- Homer, Odyssey. X. 212-425.

[96] يفترض أنّ أبوليوس يستذكر القصيدة الملحمية Argonautica Orphica والتي تسرد قصة جايسون والمغامرين. يُقدّر الكثيرون أن أبولونيوس الرودسي قد أعادها بطريقته في القرن 3 ق.م بنفس الاسم Argonautica. أين يلجأ البطل جايسون للاستعانة بالعقاقير السحرية لميديا.

- The Argonautica; edited with introd. and commentary by George W. Mooney. Longmans, Green, and Co., 39 Paternoster Row. London. p. 39.

[97] لايفيوس ميليسوس. شاعر لاتيني من القرن الأول ق.م ومؤلّف Erotopaegnia.

- Suetonius, On Grammarians. 3. 1. 1.

الناس ربّما على تصديقك. فأيُّ فائدةٍ تُرجى من الأسماك عدا طهيها وتناولها في الوجبات؟ أنا عن نفسي لا أراها تُجدي نفعا في السحر، وها أنا أخبرك لِم أقول ذلك: يعتقد الكثيرون أنّ فيثاغورس كان من أتباع زرادشت وبارعا في السّحر مثله، ومع ذلك فقد دُوِّن أنه في أحد الأيام لاحظ بعض الصيّادين وهم يقومون بسحب شبكتهم بالقرب من ميتابونتوم على ساحل ايطاليا التي اتّخذها موطنا وحوّلها بتأثيره إلى بلاد إغريق ثانية، فابتاع منهم قدر ما تفيض به من سمك، وبعد دفعِ الثمن أمرَ بتحرير جميع الأسماك التي عَلِقت في شراك الشبكة وبإعادتها للبحر. طبعا لم يكن ليسمح لها أبداً بالفلات من حوزته لو كَنهَ قيمتها في السحر. ولكونه طفرة في العلم ومولعا بالرجال القدامى فقد أُحيط علما بأن هوميروس[98] الشاعر المتعدد الجوانب أو عليّ بالأحرى أن أقول: العريف بكل المعارف، تحدّثَ عن قدرة كل الأدوية التي تنتجها الأرض دون أن يأت أبدا على ذِكرِ البحر، وفي حديثه عن ساحرة كتب هذا السطر:

"لقد عَرفتْ كل الأدوية التي جادت بها هذه الأرض الشاسعة".

وبالمِثل في مقطع آخر يقول:

"تجود عليها الأرض مانحة الحبوب بعقاقير عدّة، فما أن تُخلطَ في قدحٍ تأتي بالداء والدواء".

---

[98] يظهر أنّ أبوليوس يتحدّث عن شخصية أغاميد الشقراء في أعمال هوميروس.

- Homer, Iliad. XI. 741.

لكن لم يسبق في أعمال هوميروس أن دهنَ بروتيوس[99] وجهه ولا يوليسيس[100] خندقه السحري، ولا أيولوس[101] قِرَبهُ الهوائية، ولا هيلين[102] قدحها للخلط، ولا كيركي[103] كوبها، ولا فينوس[104] زُنّارها بأيّ سحرٍ مستمدّ من البحر أو من ساكنيه. أنتم لوحدكم في ذاكرة الإنسان من أسّستم لِكَنسِ كل قوى الأعشاب والجذور والفسائل والحصى من قمم التلال إلى البحر كما لو كانت بعضا من تشنّجات الطبيعة وحجزتموها هناك في أحشاء السّمك. وفي حين أن السّحرة اعتادوا في طقوسهم على استحضار ميركيوري[105]

---

[99] بروتيوس. عجوز البحر في أعمال هوميروس.

- Homer, Odyssey. IV. 364.

[100] يوليسيس. شخصية البطل في أعمال هوميروس. يستذكر أبوليوس المقطع: "وحفرت حفرة طولها ذراع بهذه الطريقة، وحولها أراقت الخمر على جميع الأموات، أولاً بالحليب والعسل، بعد ذلك بالنبيذ الحلو، وثالثا بالماء، ونثرت دقيق شعير أبيض. ثم تضرّعت بجديّة لرؤوس الموتى ...".

- Ibid., XI. 25.

[101] أيولوس. شخصية ميثولوجية في أعمال هوميروس. عاش في جزيرة أيوليا العائمة التي زارها أوديسيوس ورفقاؤه، أين استضافهم لمدة شهر وقدّم لهم رياحا تنقلهم إلى إيثاكا. يستذكر أبوليوس المقطع: "... أعطاني قربة مصنوعة من جلد ثور يبلغ من العمر تسع سنوات قام بسلخه، وقيّد فيها مسارات الرياح المتقلّبة، لأن ابن كرونوس جعله وصيا على الرياح ليهدأ ويثور أينما يشاء. وفي سفينتي المجوّفة ربطها بسرعة بحبل مشع من الفضة، بحيث لا ينساب منها نفس ...".

- Ibid., X. 19.

[102] هيلين. شخصية ميثولوجية في أعمال هوميروس. ابنة زوس.

- Ibid., IV. 59.

[103] كيركي الساحرة. شخصية ميثولوجية في أعمال هوميروس. يقصد أبوليوس المقطع التالي في الأوديسية: "... وقدِمت مباشرة وفتحت الأبواب المشرقة ودعتهم للدخول، وذهب الجميع معها بحماقتهم عدا أوريلوكوس من بقي في الخلف لأنه اشتبه في وجود فخ. أحضرتهم ودفعتهم للجلوس على الكراسي والمقاعد، وصنعت لهم جرعة من الجبن والشعير والعسل الأصفر مع النبيذ البرامني، ولكن في طبق الطعام مزجت العقاقير المحظورة حتى ينسوا وطنهم تمامًا...".

- Ibid., X. 234.

[104] فينوس. إلهَةُ الحب والجمال والرغبة والجنس والخصوبة والرخاء والنصر لدى الرومان. تعرف لدى الإغريق باسم أفروديت، وواحدة من الشخصيات الميثولوجية في أعمال هوميروس.

- Homer, Iliad. XIV. 214.

[105] ميركيوري. مرسول الآلهة أو الإله الرسول لدى الرومان وإله التجارة والنظير الروماني للإله الإغريقي هيرميس. تصفه الترنيمة السحرية الموجودة في ورق البردي المصري: "لقد قيل لك كمعرفة مسبقة عن الأقدار وكحلم إلهي تُرسل النبؤات في الليل والنهار".

- Papyr, Lond. 46. 414.

مانح النبوءات وفينوس غاوية الأفئدة وسيلين[106] البصيرة بخبايا الليل وتريفيا[107] سيّدة الظلال، ستقوم أنت بترحيل نبتون[108] رفقة سالاسيا[109] وبورتومنوس[110] وكلّ عشيرة النيريدات[111] من لُجّة البحر الباردة إلى العُباب المشتعل للحب.

32- ولهذه الأسباب التي ذكرتُها لا أرى شيئا يجمع السحرة والأسماك معا. والآن إن شئتم فلنأخذ بيد أيميليانوس في ما زعمه، بأنّ الأسماك مجدية في صُنع الأشربة السحريّة كما هي كذلك في استعمالاتها المعتادة. فهل كلُّ من يطلب سمكا هو بالضرورة ساحر؟ لئن سلّمنا بهذا القول سيكون كلّ من يملك مركبا شراعيا قرصانا ومن يحمل عتلة لصا ومن يحوز سيفا قاتلا. ستزعمُ أنّ لا شيء في العالم وإن خلا من كل مضرّة قد لا يُساء استخدامه يوما، وأنّ لا شيء مُبهج إلى الحدّ الذي لا يحمل فيه حزنا مكنونا. ومع ذلك فنحن لا نُسيء كلّ الأشياء تأويلا. فلا يخفى على أحدٍ أن يقتني لمراسم الدفن البخور والقرفة والمرّ والعطور الأخرى المماثلة مع أنها تُستخدم أيضا لتتبيل قربان

[106] سيلين. إلهة القمر وابنة الجبابرة هيبيريون وثيا وأخت إله الشمس هيليوس وإلهة الفجر إيبوس.

- Luke Roman, Monica Roman: Encyclopedia of Greek and Roman Mythology. Infobase Publishing, 2010. p. 434.

[107] سيدة الظلال تريفيا. تعرف لدى الإغريق باسم هيكات أو ذات الأوجه الثلاث.

-Vergilius, Aeneid. 7. 516.

[108] نبتون. إله البحر وهو تجسيد روماني للإله الإغريقي بوسايدون.

- Charles Mills Gayley, The Classic Myths in English Literature: Based Chiefly on Bulfinch's "Age of Fable". (1855). Ginn, 1893. pp. 189-191.

[109] سالاسيا. زوجة نبتون وإلهة المياه المالحة وسيّدة أغوار المحيط.

- The City of God (De Civitate Dei): Books 1–10. By Saint Augustine, Bishop of Hippo. Introduced and translated by William S. Babcock. Hyde Park, NY: New City Press, 2012. p. 226.

[110] بورتومنوس. إله الموانئ والبوابات الروماني. لا يزال ينتصب حتى اليوم معبده في روما بالقرب من Forum Boarium. يتحدّث عنه أوفيد في كتابة السادس من شعره Fastorum: "سيكون لابنك كل سلطة على الموانئ، والذي نطلق عليه اسم بورتونوس سيتمّ تسميته بالايمون بلغته الخاصة".

- Ovid, Fasti. VI. 545 - 548.

[111] النيريدات. في الميثولوجيا الإغريقية هنّ حوريات البحر الخمسين من بنات نيريوس وإلهة البحر دوريس. ذكر أسماءهن هيسيود في قصيدة ثيوغونيا، ومن أشهرهن أمفيتريت زوجة بوسيدون.

- Hesiod, Theogony. 240- 269.

- Homer, Iliad. I. 358.

واستحضار دواء. ثم إنّ هذا السياق سيقودك حتما للتفكير في أنّ رفاق مينيلوس كانوا سحرةً، إذ يروي الشاعر العظيم أنّهم صرفوا الجوع في جزيرة فاروس باستخدامهم لشصوص معقوفة[112]. كلا بل ستُصنّف في نفس الفئة مع النوارس والدلافين والسلطعون، المتأنّقين في الطعام أيضا والذين يُغرِقون أموالا طائلة في المبالغ التي يدفعونها للصيّادين، والصيّادين أنفسهم الذين يصطادون بِفنّهم جميع أنواع الأسماك. 'لكن ما حاجتك بالأسماك؟' أنت تُكابر. لستُ مرغما ولا مُلزما بإجابتك، لكني أتحدّاك أن تُثبتَ ما زعمتَهُ بأني اقتنيتُها للغرض الذي ادّعيتَهُ. حتى وإن اشتريتُ الخربق أو الشوكران الكبير أو الأفيون أو أيًّا من تلك العقاقير، والتي تنفعُ حين تُستخدم بنحوٍ معقول وتُميتُ حين تعطى مع مقادير أخرى أو بإقعاث، فهل يقبل أحدكم أن أُحاكم كمسمّمٍ، فقط لأنّ تلك العقاقير قادرةٌ على قتل إنسان؟

33- ومع ذلك فلنر ما كانت هذه الأسماك التي كنتُ في أمسّ الحاجة لاقتنائها واستعصى العثور عليها حتى تستحقَّ الثمن الذي دفعتُه لشرائها. لقد ذكروا ما لا يزيد عن ثلاثة. أطلقوا على أحدها اسما مستعارا، واختلقوا الأخرين. كان الاسم خاطئًا لأنهم أكّدوا أنّ السمكة كانت أرنب البحر، مع أنّ خادمي ثيميسون الذي يعرف شيئًا من الطبّ كما سمعتم من شفتيه ابتاع لي أخرى تماما كي أتفحّصها بناء على مقترحه كونه لم يسبق له في الواقع أن صادفَ أرنب البحر. لكني أقرُّ بأني أبحث عن أنواع أخرى من الأسماك أيضًا وقد كلّفتُ لا الصيادين فقط، بل بعض الأصدقاء المقرّبين أيضا بالبحث عن جميع أنواع الأسماك النادرة، ورجوتُهم إمّا أن يصفوا مظهر السّمكة أو يرسلوها لي حيّة إن أمكن أو ميّتة إن تعذّر الأمر. أمّا الداعي من ذلك فسأوضّح عمّا قريب. لقد كذب

---

[112] يستذكر أبوليوس من أوديسة هوميروس المقطع: "..... والآن كان من الممكن أن تنفذ كل مخازني وقوة رجالي، لو لم يشفق عليّ أحد الآلهة وأنقذني. حتى إيدوثيا ابنة بروتيوس العظيم شيخ البحر، والتي من دون الجميع هززتُ قلبها. قابلتني وأنا أتجوّل وحدي بعيدًا عن رفاقي الذين كانوا يتجولون في الجزيرة ويصطادون بشصوص معقوفة لأن الجوع كان يقرص بطونهم، اقتربت مني وتحدثت قائلة: 'أأنت شديد الغباء، غريب وقليل الذكاء. أم أنك تتجاهل إرادتك وتسعد بألم المعاناة؟'.....".

- Homer, Odyssey. IV. 368.

متهميّ - وقد ظنوا أنفسهم ماكرين للغاية - حين أوثقوا على اتّهامهم الزائف بالادّعاء أني كنتُ أبحث عن اثنتين من وحوش البحر المعروفة بأسماء خليعة، وقد خاب ذلك الزميل والمحامي الأنوك الذي لا مثيل له تانونيوس وهو يُشير إلى طبيعة الفُحش، إذ أشار بعد تعتعة طويلة إلى اسم واحدة منهما بعبارة خليعة وإطناب شائن ومقيت، أمّا الأخرى فقد وجد نفسه عاجزا عن وصفها بنحو لائق وتفادى الحرج بالعودة إلى أعمالي والاقتباس من مقطع منها وصفتُ فيه وقفة تمثال فينوس.

34- كما أنه بتلك الصفويّة السّامية التي تغمرهُ وبّخني على عدم استحيائي وصف أشياء شنيعة بلغة مهذّبة. قد أبُتُّ في أمره بحسمٍ طالما يعلن صراحةً عن دراسة البلاغة، فكثيرا ما يُقدِّم بِعَيِّه تعبيرا مُخزيًا للأمور المهيبة إلى درجة تشويهها، وغالبا ما يلوك لسانه في ما يَسُر من كلامٍ أو حتى يعتقل تماما. والآن! لنفترض أني لم أقل شيئًا عن تمثال فينوس ولم أستخدم العبارة التي كانت بمثابة الخدمة إليك، ما الكلمات التي كنتَ ستجدها لصياغة الاتّهام والتي تتناسب مع بلاهتك وقدراتك في الكلام؟ أنا أسألك، أيوجد ما يفوق حمقا أن يستدلّ امرؤ في تطابق مسمّيين بتشابه اسميهما؟ أو أنك اعتقدته ضربا من التّلفيق أن تدّعي بأني سعيت وراء هاتين السمكتين لغرض استخدامهما في وصفات سحريّة؟ تذكّر أنه طرحٌ منافٍ للعقل أن تزعم بأن هذه الكائنات البحرية التي تحمل أسماء فضيعة قد تم السعي إليها لأغراض فضيعة، تماما كالقول بأنّ مشط البحر مطلوب لمشط الشعر، السمكة المسماة صقر البحر في صيد الطيور، السمكة المسمّاة الخنزير الصغير في صيد الخنازير أو جمجمة البحر في استحضار الموتى. رَدّي على هذه التلفيقات الكاذبة والتي تفوق بغبائها سُخفَها، أني لم أسع مطلقا للحصول على هذه السلوى البحرية والسفاسف الساحلية لا مجانا ولا مقابل المال.

35- وفوق ذلك أردُّ بأنكم تجهلون حتى ماهية الأشياء التي سعيتُ وراءها كما تزعمون، لأنّ ما ذكرتُم من أسماك لا قيمة لها، تتواجد في أكوام وبكثرة على أيّ ساحل وتتهوّعها أصغر الأمواج على اليابسة دون واسطة الإنسان. لِم لا تزعمون أني كلّفتُ بالتوازي جمْعا من الصيادين مقابل ثمنٍ لإيفائي من الشاطئ بأصداف ذي بِجادٍ وحصى ملساء

ومخالب السلطعون وقشور التوتياء ومجسّات الحبّار والحصى والقش والحبال، ناهيك عن أصداف المحّار المتآكلة من الديدان والطحالب والأعشاب البحريّة وكل ما يطفو على سطح البحر وتذروه الرياح أو تقذفه الموجة المالحة أو تخلّفه العاصفة خلفها أو ما يطرحه السّكون دون حول أو قوّة على طول شواطئنا؟ طالما لا تقلّ أسماؤها تساوقا مع تلك التي ذكرتُها سلفًا لغرض إيقاظ الشكوك. لقد ذكرتُم أنّ بعض الكائنات المستخرجة من البحر لها قيمة بِعَينها في مسائل الغرام بسبب تماثل أسمائها، إن قِسنا على ذلك فلِم لا يكون الحصى جيدًا لأمراض المثانة والقوقعة للخصيتين والسرطان لمرض السرطان والطحالب لنوبات البرد. إنك وحقّ السماء لذو أناةٍ ورِفقٍ يا كلوديوس ماكسيموس، كيف لا وقد تحمّلتَ كل هذا الوقت اتّهاماتهم المغيظة حتى اختتموها، فبينما كنتُ أضحكُ من جهتي على غبائهم حين تلفّظوا بها وكأنها جادّة ودامغة، كنتُ أتعجّب حقيقةً في صبرك.

36- ومع ذلك، وبما أنّه يولي اهتماما بالغا بشؤوني، سأُطلع أيميليانوس لِم فحصتُ الكثير من الأسماك بالفعل ولِم لا أحبّذُ البقاء جاهلا بما لم أرهُ بعد. ولو أنه بلغ في دورة الحياة منتهاها ومن خَرَفِ الشيخوخة شقواها، فليُحصّل إن أراد بعض المعرفة قبل أن تنفض الروح عنه يديها. ليقرأ آثار الفلاسفة القدماء كي يكتشف الآن على كلّ حال أني لستُ أول أخصّائي في علم الأسماك، بل آتمُّ بخطى المؤلّفين وأسيادي من قرون على غرار أرسطو وثيوفراستوس[113] وأويديموس[114] وليكون وغيرهم من أتباع أفلاطون الذين

[113] ثيوفراستوس. فيلسوف وعالم إغريقي ولد بإريسوس في ليسبوس سنة 370 أو 372 ق.م. كان خليفة أرسطو في مدرسة المشائين واستمر كذلك إلى أن توفي سنة 286 ق.م. ترك عددا معتبرا من المؤلفات التي تتعلق بدراسة الحيوانات والسلالات منها كتابان بعنوان On Species or Forms.

- Diog. Laert. V. 2.

[114] أويديموس. فيلسوف وعالم إغريقي ولد بجزيرة رودس. التحق بمدرسة أرسطو فور عودته إلى أثينا سنة 336 ق.م. يقدّر مولده قبل سنة 350 ق.م واعتبر رفقة ثيوفراستوس رفقاء أكثر من تلامذة لأرسطو. قدّم مساهمات مهمّة في القياس المنطقي الافتراضي والمنطق النمطي، وكتب بإسهاب عن الفيزياء واهتم بسلوك الحيوان، كما اعتبرت تواريخه في الهندسة والحساب وعلم الفلك ذات أهمية كبيرة في تطور هذه العلوم إلى ما هي عليه الآن.

- M. Istvn Bodnr, William Wale Fortenbaugh, Eudemus of Rhodes. Rutgers University Studies in Classical Humanities, Volume XI. Transaction Publishers; 1 edition (July 8, 2002).

خلّفوا العديد من الكتب عن التكاثر والحياة والأعضاء وفوارق الحيوانات[115]. إنها لحكمة السماء يا ماكسيموس أن تُطرحَ هذه القضية أمام دارسٍ مثلكَ قرأ عدة مجلّدات من أرسطو حول 'تكاثر الحيوانات، تشريح الحيوانات، تاريخ الحيوانات'، سويا مع 'إشكاليات' التي لا حصر لها وأعمالا لآخرين من مدرسته تعالج مختلف المواضيع من هذا النوع. فإن كان مدعاة للشرف والعِزّة لهم أن يسجّلوا صفوة أبحاثهم المتأنّية فلِم يكون مشينا لي أن أحاول مجاراتهم خصوصا وأني سأحاول الكتابة عن تلك المواضيع باللغتين اليونانية واللاتينية وبطريقة أكثر إيجازاً ومنهجيّة، وأتعنّى الكشف عن أوجه قصورٍ أو تدارك أخطاءٍ لدى كلّ هؤلاء المؤلّفين؟ إن اعتقدتموه جديرا بوقتكم فإني أدعوكم أن تأذنوا بقراءة مقتطفات من 'سحر' أعمالي، حتى يكتشف أيميليانوس أنّ نطاق أبحاثي وتحرّياتي يفوق مخيّلته. أحضرْ مجلدا من أعمالي اليونانية - ربما يحملها بعض أصدقائي المهتمّين بمسائل التاريخ الطبيعي معهم في المحكمة - اختر بعناية واحدا من تلك التي تتعامل مع مسائل الفلسفة الطبيعية، ومن ضِمنها ذلك الكتاب الذي يتناول سلالة الأسماك بالذّات. وخلال البحث عن الكتاب سأخبركم بقصّة لها صلة وثيقة بهذه القضيّة.

37- يُروى عن الشاعر سوفوكليس[116] المقارع الدؤوب ليوريبيدس[117] - كونه عاش حتى الشيخوخة المتقدّمة - أنه بعدما اتّهمه ابنه بالهَبل بدعوى أنّ العمر قد جرّده بِمُضيّه من صوابه، ألقى تلك التراجيديا التي لا تضاهى 'أويديبوس كولونيوس' والتي صادف وأن

---

[115] ليكون. فيلسوف إغريقي ولد في طرواس 'شبه جزيرة بيقا' في تركيا الحالية سنة 299 ق.م. ترأس المدرسة الفلسفية المشائية في 269 ق.م خلفا لستراتو، وتوفي عن عمر يناهز الرابعة والسبعين بعد معاناة شديدة مع مرض النقرس. له عديد المؤلفات، كما أنّ أبوليوس يعتبر من المصادر النادرة التي تؤكد أنه كتب عن الحيوانات.

- Diog. Laert. V. 4.

[116] سوفوكليس. من أعظم الكتاب التراجيديين الإغريق. ولد في 495 ق.م ببلدة كولونوس، توفي سنة 406 ق.م.

- The Greatest Works of the Greatest Authors, Ancient and Modern, H.W. Hagemann Publishing Company, 1894. pp. 419-420.

[117] يوريبيديس. اعتبر رفقة سوفوكليس وإسخيلوس أعظم كتّاب التراجيديا الإغريق. يقال إنه ولد يوم النصر بمعركة سلاميس التي دارت رحاها سنة 480 ق.م. كما درس على يد العديد من العظماء أمثال بروديكوس وأناكساغوراس.

- Euripides, The Plays of Euripides [B.C. 455 to B.C. 408]. G. Routledge and Sons, 1894. pp. 05-08.

كان إذاك بصدد كتابتها، فقرأها بصوت عالٍ أمام هيئة المحلّفين دون إضافة كلمة أخرى في دفاعه عدا أنه دعاهم ألا يتردّدوا في إدانته كمجنون إن أثار شِعرُ رجل عجوز استياءهم. في تلك اللحظة - كما قرأت - انتصب المحلّفون على أقدامهم كرجل واحد إجلالا للشاعر العظيم وامتدحوه بحفاوة على دهاء حجّته وبلاغة شعره التراجيدي على حدّ سواء، في حين أنهم كانوا على مرمى حجر من إدانة المتّهم بالإجماع كمجنون بدلا عن ذلك.

أوجدتَ الكتاب؟ شكرا لك. دعونا ننظر الآن ما إذا كان ما أكتُبه يخدمني بشكل جيّدٍ في محكمة القانون. اقرأ بعض الأسطر في البداية ثم بعض التفاصيل المتعلّقة بالأسماك. وأنت، هل لك أثناء قراءته أن توقف الساعة المائية. (تتم قراءة مقطع من الكتاب).

38- لا شكّ أنك قرأتَ في أعمال الفلاسفة القدماء جلّ ما سمعتَ يا ماكسيموس. تذكّر أيضًا أن كتبي هذه تصف الأسماك فقط، تُميّز بين تلك التي تنبثق من الجماع عن تلك التي تخلق فطريا من طين القاع، وتناقش عدد المرّات وفي أيّ فترات من السنة تلقِحُ الإناث من الذكران، وتوضّح الفارق الذي حدّدته الطبيعة بين أولئك الولودين والآخرين البيوضيين - وهكذا أترجم العبارتين اليونانيتين 'أوفوتوكا' و 'زوتوكا' - فضلا عن أسباب هذا الفارق وما ميّز أعضاءها من فوارق. باختصار - لأني لن أُرهقك بمناقشة مختلف أساليب التكاثر لدى الحيوانات - تعالج العلامات المميّزة للسلالات، ومختلف أساليبها في الحياة، والفارق بين أفرادها وأعمارها، مع عديد النقاط الأخرى الضرورية لرجل العلم لكن في غير محلّها بمحكمة القانون. سأطلب الآن قراءة شظايا من كتاباتي اللاتينية التي تتناول نفس العلم، والتي ستلاحظ فيها بعض القطع النادرة من مفاهيم وأسماء لا يعرفها إلا قلّة من الرومان، بل لم تُستعرض إلى حدّ الساعة، ولكن الآن وبفضل كدّي ودراستي تمت ترجمتها من اليونانية والتي بغضّ النظر عن غرابتها لم تعد كذلك في صِبغتها اللاتينية. أتنكرُ هذا يا أيميليانوس؟ إن كان الأمر كذلك فليخبرنا أنصارك لدى أيِّ مؤلِّف لاتيني سبقَ وأن قرؤوا ما سألقيه عليك من كلمات، سأذكر فقط الكائنات المائيّة ولن أشير إلى أيّ حيوانات أخرى إلا فيما يتعلّق بالخصائص التي تُميّزها عن

الأحياء البحرية، فاستمع لِقولي وستَصيحُ قائلا في وجهي أني أقدّم لك قائمة بأسماء سحريّة كتلك المستخدمة في الطقوس المصريّة أو البابليّة.

'سلاشيا'، 'ملاشيا'، 'ملقوستراكا'، 'خوندراكنثا'، 'أوستراكودرما'، 'كرخارودونتا'، 'أمفيبيا'، 'لِبيدوتا'، 'فوليدوتا'، 'درموبترا'، 'ستيقانوبودا'، 'مونيري'، 'سوناقلستيكا'.

بوسعي أن أذكر المزيد لكني لا أرى داعٍ لإضاعة الوقت عبثا، خصوصا وأني احتاج متّسعا منه للتعامل مع التّهم الأخرى. اقرأ في غضون ذلك ترجمتي اللاتينية لبعض الأسماء التي قدّمتها لك للتو. (تتم قراءة الترجمة. الأسماء اللاتينية مفقودة)

39- أَتُراك تشينُ على فيلسوفٍ ليس بالجلف ولا بالجاهل كحال الكلبيّين الجواف، بل من يذكرُ حاله كأحد أتباع أفلاطون، أن يُحصِّل معرفةً كهذه ويكترث لها أم أن يجهلها ولا يعبأ بها؟ أن يُدرك إلى أيّ مدى تُفصحُ أمورٌ كهذه عن التدبير الإلهيّ أو يزدرد فحسب أساطير والده ووالدته عن الآلهة الخالدين؟ كتبَ كوينتوس إنيوس[118] قصيدةً عن 'طِيبِ الطعام' يسرد فيها عددًا لا يحصى من أنواع الأسماك لا شكّ في أنه أحاط بها علما. أنا أتذكّر بضعة أسطر سأقوم بقراءتها:

"كما تفوق قُضاعات كليبيا غيرها لذّة، يفيض اللطّ في إينوس والمحار القاسي أيضا في أبيدوس، والبلطي بميتيلان وبامبراسيا تحديدا خارادوس. عليك بالسرغوس البرانديسي إن كان كبيرا، وبخنازير البحر في تارنتوم. وتدبّر أمرك لاقتناء سَيّاف البحر من سارنتوم وسمك كوماي الأزرق. ماذا! أَتجاوزت أبا مصقار، وحق جوبيتر العليّ هو ليس بأقلّ حلاوة، تصطاده مِبدانًا ومِبطانًا قبالة موطن نيستور. وكيف أنسى سوداء الذّيل والعرّيسة واللّبروس واللّوت؟ واسعى وراء سبّيط كوركيرا والعرّيك وجمجمة البحر السّمينة والسمك الأرجواني والمرّيق والكيدم والتوتيا اللذيذة".

---

(118) كوينتوس إنيوس. يعتبره الرومان أب الشعر الروماني، ولد بروديايِ في كالابريا سنة 239 ق.م وتوفي سنة 169 ق.م. يقدّر أنّ أبوليوس يستشهد بأبيات من Hedyphagetica.

- James Skerrett Shore Baird, The Classical Manual: An Epitome of Ancient Geography, Greek and Roman Mythology. Whittaker & Company, 1852. p. 135.

لقد أشاد بالعديد من الأسماك في أبيات أخرى مُبينا أماكن تواجدها، وما إن كان من الأفضل قَليُها أو طهوُها، ومع ذلك لا يلومه النقّاد على ذلك. أعفني من لومك إذن فأنا الذي أصوغ الأشياء المعروفة لدى قلّة من الناس تحت أسماء مهذّبة ولائقة باليونانية واللاتينية.

40- دعنا من هذا! ولنتطرّق إلى سواه. ماذا لو ساقني اهتمامي ومهارتي في الطب للبحث عن علاجات معيّنة في الأسماك؟ إذ لا شك أنّ الطّبيعة بسخائها المنصف كَنّت وبَثّت العديد من العلاجات في كل ما خُلق، وبالتالي يمكن إيجاد العديد من العلاجات المماثلة في الأسماك. والآن، أتخالهُ شأن الساحر أكثر من الطبيب أو حتى الفيلسوف أن يعرف الأدوية ويبحث عنها؟ مع أنّ الأخير بِفعلهِ سيجعلها ذِخرا لغيره لا لِضُرّته. إن أدرك قدامى الأطباء حقًا قدرة الرقية السحرية على علاج الجروح كما يخبرنا بذلك هوميروس[119] الأكثر مصداقيّة على مرّ العصور بإيقافهم الدم النازف من جرح يوليسيس بترنيمة، فلا جُناح على ما يمكن فعله لإنقاذ الأرواح. لكن غريمي يقول 'لأيّ غرضٍ عدا الشر قُمتَ بتشريح الأسماك التي أَحضرَها لك خادمك ثيميسون؟'. كما لو أني لم أخبركم للتوّ بأني أكتبُ أطروحات عن كلّ أعضاء الحيوانات، واصفا مكان وعدد وغرض أجزائها المختلفة، وفاحصا باجتهاد أعمال أرسطو في علم التشريح ومُثريا إياها إن تطلّب الأمر ذلك. لذلك فأنا أستغرب وبشدّة أن تعلمَ بأني عاينتُ سمكة صغيرة والحال أني فحصتُ بالفعل عددًا هائلا في جميع الظّروف أينما وجدتُها، علاوة على أني لم أُبدِ أيّ غموض على أبحاثي بل أجريتُها على رؤوس الأشهاد، حتى أُتيح المجال لأيّ غريبٍ تاق لرؤية ما أفعله، وأُحيي بدوري سُنّة أسيادي الذين يقولون: إنّ على أفكار الرجل الذي يملك نفْسه وروحه أن تتقلّد قدر الإمكان هيئته. لقد عرضتُ في الواقع هذه السمكة الصغيرة التي تسمّونها أرنب البحر للكثيرين ممن وقفوا جانبا، ومع ذلك لا أعرف لحدّ الساعة أيّ

---

[119] يستذكر أبوليوس من أوديسة هوميروس المقطع: "... وانشغل الأبناء الأعزاء لأوتوليكوس بالجثة، وضمّدوا جرح النبيل أوديسيوس الإلهي بمهارة، وقيّدوا الدم الأسود بسحرٍ، وعادوا على الفور إلى منزل والدهم العزيز ...".

- Homer, Odyssey. XIX. 456.

اسمٍ أُطلِقه عليها من دون بحثٍ أكثر وثوقا، إذ بالرغم من نُدرتها وخصائصها المميّزة للغاية فأنا لا أجد لدى الفلاسفة القدامى توصيفا لها. هذه السّمكة بقدر ما تمتدّ معرفتي فريدة من نوعها في أحد الجوانب لأنها تحتوي دون باقي الأسماك على اثني عشر عظما تتشابك كسلسلة في بطنها، تماما كما هو الحال لدى عظام المفاصل لخنزير الرضاعة. أمرٌ ما كان ليفوت أرسطو ذِكره لو علِمه، فهو الذي يسجّل كظاهرة حصريّة تواجد القلب المصغرّ للسّمكة المعروفة باسم الحمار البحري الصغير بمعدتها.

41- يقول 'شرّحتَ سمكة'، من الذي يرمي فيلسوفا بِجُرمٍ يُعفى منه جزار أو طباخ؟ 'شرّحتَ سمكة'. ربما تعترض على حقيقة أنها كانت نيّئة ولن تعدّها جريمة إن شققتُ بطنَها وقطّعتُ كبِدها الطريّ بعد طهيها مثلما تُعلِّم الفتى سيكينيوس بودنس ما يفعله مع أسماكه في وجبات الغداء. ومع ذلك فهو لجُرمٌ أعظم لدى فيلسوفٍ أن يتناول الأسماك أكثر من أن يعاينها. أَفيُسمح للأوغور[120] بِفَحص أكباد الذبائح ولا يُسمح بمعاينتها من الفيلسوف، العَرِيف بمقدرته على استخلاص الفؤول من كل حيوان وكبير العرّافين لكل الآلهة؟ أترميني بالجرم على ما يشدّني أنا وماكسيموس تجاه أرسطو؟ ما لم تُخرِج أعماله من المكتبات وتنتزعها من أيدي الدّارسين لا يحقُّ لك أبدا اتّهامي. لكن كفاية! لقد أعطيتُ هذا الموضوع أكثر من حقّه.

[120] الأوغور أو العرّاف. وصف شيشرون هذا المنصب بالأعلى منزلة في الدولة، إذ لديه سلطة ذاتية يمكن أن تمنع الكوميتيا من التصويت، أو إلغاء القرارات التي تم تمريرها بالفعل. فإن لم يؤخذ بالعلامة الإلهية على النحو الواجب فإنّ عبارة 'ALIO DIE' من أوغور واحد قد تضع حداً لجميع الشؤون، وفوق ذلك فقد ألغى مرسوم من مجمع الأوغور القوانين عديد المرات. هذا وقد نصّب روميلوس نفسه مجمّع الأوغور من 3 أفراد بعدد القبائل التي أسّست روما، كما تمّت زيادة أعدادهم مع الوقت.

- Charles Anthon, A Manual of Roman Antiquities. Harper & brothers, 1862. pp. 180-182.

أبصِرْ أيضا لِتَناقضهم مع أنفسهم. يقولون إني سعيتُ إلى الزواج من عقيلتي بمساعدة الفنّ الأسود والسّحر المستخلص من البحر في الوقت الذي يُقرّون فيه بأني كنتُ في قلب جبال جيتوليا. وما يدريكم لعلّ طوفان دوكاليون[121] قد جعل من إيجاد الأسماك أمرا يهون! ومع ذلك فأنا ممنون لأنّهم يجهلون بأني قرأت لثيوفراستوس 'عن الحيوانات التي تعضّ وتلدغ'، ولنيكاندر[122] 'عن لدغات الحيوانات البريّة'، لكانوا سيتّهمونني بالتسميم أيضا! لقد تضلّعتُ في هذه المواضيع بفضل قراءتي لأرسطو ورغبتي في مجاراته، كما أدين أيضا لنصيحة معلّمي أفلاطون الذي يقول: إنّ أولئك الذين يُجرون أبحاثا كهذه "يتعقّبون شكلاً سارًا للتّسلية لن يندموا عليه أبدًا".

42- وما أن أبلجتُ مسخرة الأسماك هذه فإذا بي استمع لأخرى من ابتكاراتهم بنفس القدر من الغباء، لكن بتطرّف أكبر ومكر أعظم. فما أن تبيّنوا في حجّتهم حول الأسماك لا جدواها وأنها ستخيب في مسعاها، وما أن أدركوا فوق غرابتها سُخفَها - من سمع يوما عن سمك يتم تحجيمه ونزع حَسَكِه لمقاصد السحر القاتم؟ - أيقنوا أنّ الأنسب لترّهاتهم أن تُدرج ما يصدّقه سواد الناس وهكذا اشتقّوا من الأمور الشائعة كذبة أخرى والتي يصدّقها العامة بالأحرى. لذا زعموا أني انتبذتُ بصبيٍّ مكانًا سرّيًا به مذبح صغير وفانوس وقلّة من الأعوان كشهود عيان، وهناك سحرتُه بِرُقية إلى أن خرّ في المكان الذي

---

[121] طوفان دوكاليون. وفقا للميثولوجيا الإغريقية، دوكاليون هو ملك ثيساليا ابن بروميثيوس وزوج بيرا ابنة ابيميثيوس. تروي الأسطورة أنه خلال فترة حكمه غضب جوبيتر من شرّ الإنسان، وقرّر تدمير العالم بإغراقه بالكامل، والذي حدث فعلا مع كل الظروف المرعبة التي رافقت الطوفان. نجى دوكاليون وزوجته بإتباع نصيحة أخيه وصُنع مركبٍ، والذي رسا بعد تسعة أيام على جبل بارناسوس. بعد انزياح المياه قام دوكاليون وزوجته باستشارة عرّافة حول الخطوات التي عليهم القيام بها لإعادة جعل العالم مأهولا بالبشر من جديد، فطلبت منهما أن يرميا عظام جدتيهما خلفهما. بعد تردّد وافقا على الأخذ بنصيحة العرافة، وقاما بذلك فتحولت الحجارة إلى رجال ونساء.

- A Catechism of Mythology; or, A short account of the heathen gods and heroes; necessary for the understanding the ancient poets, and the classics: for the use of young people. By a friend to youth. Printed for Pinnock And Co. By James Robbins, Winchester. 1812. pp. 64-65.

[122] نيكاندر. شاعر وطبيب ونحوي ولد بكلاروس بمحاذاة كولوفون بتركيا الحالية في القرن 3 ق.م بجوار معبد أبولو، تُنسب إليه العديد من الأعمال منها 'Theriaca' التي تحدّث عنها أبوليوس.

- G.W. Johnson, A New and General Biographical Dictionary: Containing an Historical Critical and Impartial Account of the Lives and Writings of the Most Eminent Persons in Every Nation in the World, Particularly the British and Irish. The Proprietors, 1795. p. 273.

ألقيتُ فيه التعويذة لوجهه، وأنه وُجد فور إيقاظه فاقدا لصوابه. لم يجرؤوا على المضيّ بالفرية أبعد من ذلك، فقد اضطروا لإتمامها أن يضيفوا بأنّ الصبيّ صَدع بالكثير من النبوءات، وهكذا نعلم أنّ مَآل الرقى هي العرافة والنبوّة تحديدا، وهذه المعجزة في حالة الأولاد لا يُزكّيها معتقد العوام فحسب بل ذِكْر العلماء.

أتذكّر قراءة مواضيع شتىّ ذات صلة بهذا النوع لدى الفيلسوف فارو[123] وهو كاتب واسع العلم والمعرفة، ومن ضِمنها هذه القصّة على وجه الخصوص: تم إجراء استقصاء في ترالس باستخدام السحر عن النتيجة المحتملة للحرب الميثريداتية، فأنبأهم صبي بالأحداث القادمة في مائة وستين سطرا من الأبيات وهو يحدّق في صورة ميركيوري وهي تنعكس في وعاء من الماء.

كما يُروى أيضا أنّ فابيوس بعدما فقد خمسمائة ديناري أتى يستشير نيجيديوس، فألهم هذا الأخير بعض الصِّبية باستخدام التعاويذ وهكذا استطاعوا أن يرشدوه أين دُفِنت صُرّة تحوي جزءا من المال وكيف تمّ تفريق الباقي، وأنّ أحد تلك الدنانير كان في حوزة الفيلسوف ماركوس كاتو[124] والذي أقرّ فعلا بأنه استلمه من أحد الخدم كعطيّة لخزينة أبولو.

43- لقد قرأتُ هذا وغيره عند كثير من الكُتّاب عن فنّ السحر والغلمان، لكني في شكٍّ ما إن كنتُ سأسلّم بصدق قصصٍ كهذه أو لا، مع أني أصدّق أفلاطون حين أقرّ بوجود قوى إلهية تَشغلُ مقاما وسطا ودَورًا وسيطا بين الآلهة والرّجالات وسُلطةً على صنيع

---

[123] ماركوس تيرينتيوس فارو لوكولوس. ولد في روما سنة 116 ق.م. قنصل وفيلسوف ومؤرخ ونحوي، كان في وقته بمنزلة أرسطو لدى الإغريق، إذ أخبرنا بنفسه أنه كتب 490 كتابا.

- J. Eugene Reed, The Lives of the Roman Emperors and Their Associates from Julius Cæsar (B. C. 100) to Agustulus (A. D. 476), Volume 2. Gebbie & Company, 1883. pp. 89-90.

[124] ماركوس بورسيوس كاتو. ولد في توسكولوم سنة 234 ق.م. سياسي شهير ومؤرخ روماني وفيلسوف من المدرسة الرواقية. يتحدّث أبوليوس عن كاتو الأكبر حين كان كاهنا لأبولو، أين درس إنكار الذات الجسدي ومارس عقيدة الزهد Asceticism.

- Charles Merivale, School history of Rome: abridged from General history of Rome by C. Puller. Longmans, Green, And Co, London. 1877. p. 198.

السّحرة من عرافة ومعجزات[125]. فضلا عن ذلك فأنا أرى أنّ النفس البشريّة خاصة عندما تكون يافعة غير مصقولة قد تركنُ إلى هجوع أو تُطرحَ في سُلوانٍ عمّا يحيط بها بنشوة الترانيم أو التأثير المهدّئ للرائحة الزكيّة، وهكذا ترتدُّ عائدة حين يتلاشى إدراك الجسد بأكمله من الوعي وتذعنُ إلى طبيعتها البدائيّة التي هي في الحقيقة خالدة وإلهيّة، وبالتالي كلّما كانت في حالة من الغيبوبة أمكنها التنبّؤ بالمستقبل. ولكن كيفما كانت هذه الأمور وقدر ما كان إيمان الناس بها، فحريٌّ بالصبيّ النبوي - حسبما أفهم - أن يكون سويّا ولا تشوبه في الجسد شائبة، نافذ البصيرة وواسع الرواية حتى يكون مقاما جديرا ومُواتيا للعرض على القدرة المسكونة الإلهية - إن كانت هذه القوّة بالفعل تَلجُ جسد الصبيّ - أو سرعان ما تنطبقُ في صحوته على سلطانه الكامن في العرافة فيَجِدُها جاهزة للاستخدام ويُعيدُ استثارة تلقيناتها دون أن يتسبّب فقدان الوعي في تلبّدها أو إعاقتها، لأنه وكما قال فيثاغورس[126]: ما كلّ نوع من الخشب يليقُ لِنَحت تمثال ميركيوري.

لئن كان الأمر كذلك فأخبرني من كان هذا الغلام الذي لا يشكو علّة ولا تشوبه شائبة، اللبيب الأريب الذي اعتبرتُه خليقا بتلقينه هذه الخبايا بقدرة تعويذاتي. والحقّ أن ثالوس الذي ذَكرتُم بحاجةٍ إلى طبيبٍ لا إلى ساحرٍ، فالبائس المسكين مُبتلى بالصّرع حتى إنه غالبا ما يُغمى عليه مرتين أو ثلاث مرات في اليوم دون الحاجة إلى أيّة عزائم، وما من طرفٍ في جسمه إلا وأضناه باضطراباته. وَجهُه متقرّح ورأسه مكدوم من الأمام والخلف وعيناه خادرتان ومناخيره منتفخة وقدماه تتهادى. قد يدّعي أنه أعظم السحرة من ظلّ

[125] يقول أفلاطون في سيمبوزيوم: "... تفسير ونقل الأشياء البشرية إلى الآلهة والأشياء الإلهية إلى الناس، برفع التضرّعات والتضحيات، وإنزال الأوامر والجزاء. وكونها تتوسّط الطريق فهي تجعل كل واحد مكمّلا للآخر، بحيث يتمّ الجمع بين الكلّ في واحد. إذ عبره تُنقل كل العرافة والكهنوت فيما يتعلق بالذبيحة والطقوس".

- Plato, Symposium. 202e.

[126] يقول الفيلسوف العربي يامبليخوس في مؤلفه حياة فيثاغورس: "أعتقد أيضًا أنه قيل من قِبل أتباع فيثاغورس ممن يحترمون أولئك الذين يُعلِّمون مقابل ثمن، أنهم يُظهرون أنفسهم أسوأ من نحاتي التماثيل أو أولئك الفنانين الذين يؤدون عملهم قعودا. بالنسبة لهؤلاء، حين يأمرهم أحد بصنع تمثال لهيرميس، يبحثون عن خشب ملائم لتجسيد الشكل المناسب، لكن أولئك يدّعون أنهم يستطيعون بسهولة إنتاج أعمال الفضيلة من كل طبيعة".

- Iamblichus, Life of Pythagoras. Translated from The Greek. By Thomas Taylor. J M Watkins, London 1818. pp. 125-126.

ثالوس بمحضره واقفا على قدميه ردحا من الوقت لأنه دائم الاستلقاء، فإمّا نوبة صرع أو مجرّد إرهاق تتسبّب له بالانهيار.

44- ومع ذلك تزعمون أنّ عزائمي هي التي أحاقت به لمجرّد أن تملّكتهُ نوبة في وجودي بالصدفة، وتُشهدون على كلامكم كل هذا العدد من زملائه الخدم الذين طلبتم مثولهم بالمحكمة. لهم أن يخبروكم بأنفسهم لِم يبصقون على ثالوس ولِم لا يجرؤ أحدٌ على مشاركته الطعام من نفس الطبق أو الشراب من نفس القدح. وهل لي أن أُسند ذلك للخدم وأنتم ترون الأمر بأنفسكم؟ فانكروا إن كنتم تجرؤون أنّ ثالوس كان يُقاسي الصرع قبل وقت طويل من مجيئي إلى أويا أو أنّه كثيرا ما تمّ عَرضُه على الأطبّاء. لينكر رفاقه في الرقّ الذين هم في خدمتكم هذا الأمر. سأعترف وحقّ الآلهة بكل التُّهم إنْ لم يكن قد أُرسَل منذ أمدٍ بعيدا إلى الريف مُوارًى في ضيعة قَصِيّة مخافة نقل العدوى لبقيّة سكان المنزل. وهي حقيقةٌ لا قِبل لهم بإنكارها فللسّبب عينه تعذّر علينا تقديمه اليوم. هذا الاتّهام برمّته كان طائشا ومباغتا فلم يُطالب أيميليانوس إلا قبل البارحة بأن نُقدّم خمسة عشر عبدًا لحضرتكم. يتواجد منهم أربعة عشر يعيشون في البلدة، ويغيب عنهم ثالوس لوحده بسبب حقيقة نَفيِه إلى مكان يَبعدُ مائة ميل تقريبا. ومع ذلك فقد أرسلنا في إثره من سيأتي به في عربة. أمامك أربعة عشر عبدا ممثولا يا ماكسيموس فاسألهم رجاءً أين هو الغلام ثالوس وكيف هي حالته الصحية، سلْ عبيد المتّهم أرجوك. لن ينكروا أنّ هذا الماهن مَثارٌ للتقزّز والغثيان، وأنّ جسده بالضُرّ مُدنَفٌ وللنوبات مُتّضعٌ، وأنه همجيّ وريفيّ أخرقٌ. يا له من صبيّ بهيّ انتقيتَهُ كشخص يمكن عَرضُهُ في أُبّهةٍ لدى تقديم قربان والذي يطيب للمرء أن يتمسّح برأسه ويُلبِسه عباءة ناصعة البياض توقُّعا لبعض الردود النبويّة من شفتيه. آه لو كان حاضرا لَعَهِدتُ به لعطاء رحمتك يا أيميليانوس ولَتشمّرتُ لِأَحضُنه بنفسي حتى تستطيع استجوابه. لطَفِق هنا في الجلسة العلنيّة وأمام القضاة يلفّ عينيه الجامحتين حواليك ويطلق الزّبد من فمه، فيبصق على وجهك ويشدّ بتشنّج على يديه، ثم يهزّ رأسه وينهار أخيرًا في نوبة بين ذراعيك.

45- ها أنا أعرضُ أربعة عشرا عبدا في المحكمة كما طلبت، لِمَ ترفض استجوابهم؟ تريدُ غلاما مريضا بالصرع لا يخفى عليك مثلي أمر غيابه عن أويا منذ مدة. أنأمل في دليل أكثر من هذا على زيف اتّهامك؟ تتعامى عن أربعة عشر عبدا حاضرا بِطلبٍ منك، وَتُغيرُ على غلام واحد في مغيبه. ما الذي تريده؟ لنفترض تواجد ثالوس: أتبتغي من وراء ذلك إداني على أنه تعرّض لنوبة في وجودي؟ ولِمَ العياء! فأنا عن نفسي أقرّ بذلك. تنسِبُ ذلك لتعويذة، أُجيبكَ بأنّ الصبيّ لا يدري بهذا الأمر كما لا يَشُقّني إنكار وقوعه. وفي حين أنك لن تجرؤ على إنكار مرض ثالوس بالصرع فلِمَ تعزو سقوطه إلى السّحر بدلاً من السّقم؟ أَعانى في محضري من أمرٍ لم يحصل له مرارا في شتّى الظروف أمام العديد من الأشخاص؟ أبدا. حتى وإن اعتبرتُه إنجازا عظيما أن أُسقِط مريضا بالصّرع في نوبة، فما الذي يدعوني لاستخدام السحر وقد أخبرني رواة التاريخ الطبيعي أنّ حرق الحجر المسمى غاغاتس[127] يَبُتُّ في المرض ببالغ اليسر وبما لا يدع مجالا للشكّ؟ لأنّ صُنانهُ يُستخدم عادة كاختبارٍ لسلامة أو وهن العبيد حتى في سوق الرقيق. كما أن عجلة الفخار بِغزلها تؤدي إلى إصابة رجل يُقاسي هذا المرض بفعل دورانها، لأنّ مشهد دورانها يمضّ بالفعل عقله الواهن، وهذا ما يجعل الخزّاف أكثر كفاءة من الساحر لإدخال الصرعى في اضطرابات. لم يكن لديك أيّ داعٍ لمطالبتي بتقديم هؤلاء العبيد، في حين أني أملك سببا وجيها لمطالبتك بتسمية أولئك الذين شهدوا هذا الطقس الإجرامي حين رميتُ المُحتضرَ ثالوس في واحدة من نوباته. لم تَذكُر شاهدا عدا هذا الصبي الدنيء سيكينيوس بودنس الذي تتّهمني باسمه. هو يدّعي أنه كان حاضرا. طبعا لا تدفعنا حداثة سنه أن نرفض شهادته بعد قَسَمِهِ، لكن موقعه كأحد متهميّ تنتقص حقيقةً من مصداقيته. كان الأمر ليكون أسهل بالنسبة لك يا أيميليانوس وكان من شأن برهانك أن يحمل وزناً أكبر بكثير لو قلتَ إنك كنت حاضراً في الطقس وقد تملّكك مُذّاك

[127] غاغاتس أو الكهرمان الأسود. يصفه بليني بالحجر الأسود. أملس، خفيف ومسامي، سُمّي تيمنا بغايجس وهي بلدة ونهر في ليشيا. يختلف قليلا في مظهره عن الخشب، ذو ملمس هش، وتنبعث منه رائحة كريهة عند فركه. حين حرقه تنبعث منه رائحة كبريتية، كما أنّ رائحته تطرد الثعابين، وتبدد المشاعر الهستيرية، وتكشف أيضًا عن بوادر الصرع وتعمل كاختبار للعذرية.

- Plin, Nat. 36.

الاضطراب، بدلا من أن تَعهدَ القضية بِرُمّتها إلى شهادة الغلمان كما لو كانت مجرّد مزحة. غلام تملّكته نوبة، غلام رآه، أكان غلامًا أيضا من سَحرَه؟

46- في هذه المرحلة تطلّع تانونيوس بودنس بدهائه إلى كذبته وهي تتهاوى أرضا، وإلى استهجان وهمهمات الجمهور وهي تنهش حجّته إربا إربا، فما كان عليه إلا أن يُضرِم في حُسبانهم توقّعات جديدة بالقول أنه سيأتي بغلمان آخرين سَحرتُهم أيضا، وهكذا انتقل إلى خط اتهام آخر فعلا. بوسعي تجاهله لكني سأبذل قصارى جهدي لتحدّيه كما فعلتُ مع البقيّة، وها أنا ذا أطالبُ بتقديم هؤلاء الصّبية. لقد بلغني أمرُهم، أنك بوعد إعتاقهم من ذمّتك رَشوتَهُم كي يحلفوا بالكذب تحت القسم. غير أني لن أزيدَ عن قولي فهَلُمّ بِهم. أنا أطالب وأصرّ تانونيوس بودنس أن تفي بوعدك. اجلِبْ أولاء الصبية الذين تضع في شهادتهم كلّ ثقتك. قدِّمهم. سمِّهم. كُلُّ ما خُصّص من وقتٍ لخطابي تحت تصرّفك. تكلّم تانونيوس أنا أُخاطبك فلِم تَجِم؟ ما الذي أصابك؟ لِم تنظر حولك؟ إن لم يتذكّر توجيهاته أو نسي أسماء شهوده فهل لك يا أيميليانوس أن تتقدّم وتخبرنا عن التعليمات التي أسديتها لمحاميك وتَعرِض أولاء المَهَنةَ. لِم تقلّبت شاحبا؟ لِم لا تقول شيئا؟ أهكذا توجّه اتّهاما؟ أهكذا تتّهم رجلا بتهمة جادة؟ أليست إهانةً بالأحرى لمواطنٍ ذي شأنٍ مثل كلوديوس ماكسيموس وملاحقة جائرة وافترائيّة في حقّي؟ ربما انزلق وكيلك في خطابه ولم يكن هناك أيّ أولاد لتقديمهم، فاستفد بعض الشيء من الأربعة عشر الذين أحضرتُهم إلى المحكمة. فإن رفضتَ ذلك، فلِمَ طلبتَ مثول المنزل بأكمله؟

47- لقد راودتَ في تهمة السحر على تقديم خمسة عشر عبدا، فَبِكم ستطالبُ إن كانت التهمة تخصّ العنف؟ هذا يشير إلى أنّ الخمسة عشر عبدا على علم بأمرٍ لا يزال خفيّا، أو أنّه لا يخفى بل يرتبط بالسّحر ضمنيّا؟ لديك خيار من اثنين: إمّا أني بإشراك عددٍ كبيرٍ من الشهود لم أفعل ضيرا، وإلا فما كان عليّ أن أُشهِد عليه جمعا غفيرا. لقد قِيلَ لي إنّ هذا السحر الذي تتهموني به جريمةٌ في نظر القانون، وقد تمّ حظرهُ منذ الأزمنة

الغابرة من قبل اللوائح الاثنتي عشرة[128]، لأنه وعلى نحو خارق تمّ مسح المحاصيل من حقل لآخر. إذن فهو فنّ خبيّ بقدر ما هو بغيض ورهيب، يحتاج بالضرورة لِخَفر الليل وَسِتر الظلام ومُطلق العزلة وهمهمة التعاويذ، ولا يؤذن إلا لقلّة من الأحرار بحضوره فما بالك بالعبيد، ومع ذلك سيكون لديك خمسة عشر عبدا في هذه المقام. أكان عُرسًا هذا؟ أم مهرجانًا ما؟ أم وليمةً جرت في أوانها؟ خمسة عشر عبدا يشاركون في طقوس سحرية كما لو أنهم أسّسوا كويندِيسيمفيرس[129] من أجل تقديم قربان! أكان من المرجّح أن أُشرِك عصْبة في هذه المناسبة إن كان عددهم أكثر مما تقتضيه السرّية؟ خمسة عشر رجلاً حرا يشكّلون بلدة، وخمسة عشر عبدا منزلا، وخمسة عشر قِنًّا مكبّلا فرقة من رجال السُّخرة. أكنتُ بحاجةٍ إلى حشدٍ كهذا ليساعدني في تثبيت الأفدية طيلة الطقوس المطوّلة؟ أبدا. لم تذكر من أضاحٍ عدا الدجاج! أكانوا هناك لعدِّ حبيبات البخور؟ أو لصرع ثالوس أرضا؟

48- تزعمون كذلك أني استدرجتُ امرأة حرّة عانت من نفس مرض ثالوس للقدوم إلى بيتي واعدا إيّاها بعلاجها، وأنها خرّت هي الأخرى مغشيا عليها من جرّاء عزائمي. أراكم تتّهمون مصارعًا لا ساحرًا طالما تجزمون بأنّ كلّ من قصد بابي تَرَدَّى أرضا. فوق ذلك ينفي ثيميسون الطبيب - وهو من أحضر المرأة لأتفحّصها - عندما سألتَه يا ماكسيموس

---

[128] اللوائح الاثني عشر. وهي قائمة من التشريعات حفظت حقوق المواطنين الرومان. المثال الذي استخدمه أبوليوس يندرج ضمن اللائحة الثامنة، البند الثامن تحديدا، والذي ينصّ على أنّ الشخص الذي يدمّر المحاصيل أو يتلفها باستخدام السحر مصيره الموت. أما تهمة استخدام فن السحر أو عقاقير مسممّة على أي شخص فمصير الفاعل الموت أيضا وفقا للائحة التاسعة، البند الخامس وعشرين تحديدا.

- Gaius, Thomas Lambert Mears, the Institutes of Gaius and Justinian, the Twelve Tables, and the CXVIIIth and CXXVIIth Novels: With Introd and Translation. Stevens, 1882. pp. 577-590.

[129] مجمّع الكهنة الخمسة عشر أو Quindecimvirs. مجموعة من الكهنة مكلّفين بالحفاظ على كتب العرافة واستشعارها بطلب من مجلس الشيوخ، يُنتخبون مدى الحياة. عُهدت كتب العرافة في عهد الملوك إلى رعاية رجلين duumviri من ذوي المرتبة الرفيعة، وبعد انتهاء الملكيّة إلى أنبل النبلاء الذين تم إعفاؤهم بموجب ذلك من كل المهام الإدارية والعسكرية. تم رفع عددهم إلى 10 حوالي 367 ق.م بالمناصفة بين النبلاء والعامة. تم بعد ذلك رفع عددهم إلى 15 رجلا في وقت غير مؤكّد بالضبط.

- Sir William Smith, A Dictionary of Greek and Roman Antiquities. John Murray, Albemarle Street. London 1875. p. 387.

إن راودتُها عن شيء عدا سؤالها إن كانت تسمعُ طنينا في أذنيها وإن كان الأمر كذلك أيّ أُذنٍ عانت أكثر، وأضاف أنها غادرت على الفور بعد إخباري بأن أذنها اليمنى كانت الأكثر اضطرابا. هنا يا ماكسيموس ومع حِرْصي لأكبح نفسي عن امتداحك لئلا أبدو وكأني أستميلك في صفي، لا أرى لي مناصا دون تقريظك على دَهاء أسئلتك. فبعدما قضوا وقتا طويلا في مناقشة هذه النقاط والادّعاء بأني سحرتُ المرأة، وهو ما أنكره الطبيب الذي كان شاهدا على الواقعة، سألتَهم ببصيرة تفوق ما للبشر عمّا غَنِمتهُ من تعويذاتي؟ أجابوا 'تملّكت المرأة نوبة'. سألت 'ماذا بعد؟'، 'هل ماتت؟'. قالوا 'لا'. 'ما الذي ترمون إليه إذن؟'. 'كيف يمكن لواقعة تعرّضها لنوبة أن تنفع أبوليوس؟'. حِرصُك في السؤال للمرة الثالثة يوحي بالسّداد، لِعلمك بضرورة إخضاع كل الوقائع لفحص دوافعها باتِّئَاد، فغالبًا ما يُسلَّمُ بالوقائع دون الفصل في الدوافع، ولهذا يطلقُ على ممثلي المتقاضين بالدِّفاع لأنهم يحدّدون دوافع كل فعلٍ بعينه. إنّ إنكار حقيقة ما هو أمر سهلٌ ولا يحتاج إلى محامٍ، أمّا إثبات صحّة أو خطأ تصرّف ما لَعُقبولة تشقّ على العوام. ولذا فإنها لمضيعة للوقت الاستفسار عمّا إذا كان قد تمّ القيام بشيء ما ومتى، حتى لو تم القيام به لا يمكن ادّعاء وجود دافع للأذى. في ظلّ ظروف كهذه، إن لم يكن هناك أيّ دافع جنائي مُزمعٍ فإنّ القاضي الكفء يعفي المُتّهم من كل تحقيقات أخرى مُغيظة. والآن، بما أنهم لم يثبتوا أني سحرتُ المرأة أو تسبّبتُ في إصابتها بنوبةٍ فأنا لن أنكر بدوري أني فحصتها نزولا عند رغبة طبيب، وسأخبرك يا ماكسيموس لِمَ سألتُها إن كانت لديها ضوضاء في أذنيها. لن أفعل ذلك بداعي تبرئة نفسي من التّهمة التي قرّرتَ ألا تُلقِي اللّوم أو الجرم عليها مسبقا، بل لإضفاء شيءٍ يستحقّ سماعك ويثير اهتمام شخص بِسِعة معرفتك. وسأخبرك بقدر ما استطعت من إيجازٍ فما أودّ إلا أن أشدّ انتباهك إلى بعض الحقائق لا أن أُقِلّ احترامك بتلقينك.

49- شيّد الفيلسوف أفلاطون بما يفوق البلاغة البشريّة بُنيان الكون بأسره في عمله الجليل تيماوس. بعدما تحدّث ببصيرة نافذة عن القوى الثلاث التي سوّت كينونة

الإنسان[130] وأظهر بمنتهى الوضوح التدبير الإلهي في خلق مختلف أعضائنا، يصُفُّ تحت ثلاثة فروع[131] أسباب جميع الأمراض. يكمنُ السبب الأول في أعضاء الجسم وهذا عندما تفشل الصفات الفعلية لهذه الأعضاء من رطوبة وبرودة مع نقيضيْهما في المواءمة، ويحدث ذلك عندما يكتسب أحد هذه الأعضاء نِسبًا مفرطة أو ينتقل من موضعه. يكمنُ السبب الثاني للمرض في إعطاب مكونات الجسم التي على الرغم من كونها تتشكّل من عناصر بسيطة إلا أنها تتكتّل على نحو معيّن حتى تحظى بِسِمة محدّدة تخصّها، تماما كالدّم والأنسجة والعظام والنخاع ومختلف المواد التي تنتج عن اختلاط كل منها. أمّا ثالثًا فإنّ تكلُّد العديد من العصائر والأبخرة المتكدّرة والخلائط الكثيفة في الجسم هو آخر مُستثير للمرض.

50- من بين هذه الأسباب فإنّ أكثر ما يُسهِم في الإصابة بالصرع وهو المرض الذي شرعتُ في الحديث عنه هي حالة يتفسّخ فيها اللحم بسبب التأثير المتلف للنار إلى أن يُشكّل طبقة رغوية وكثيفة. هذا يُولّد بخارًا، وبالتالي فإن فَيْحَ الهواء المضغوط داخل الجسم يُفرز قيحًا أبيض وهائجا. إذا نجح هذا التخمّر في الانفلات من الجسد يتفشّى بطريقة مقرفة أكثر منها خطرة لأنه يُقوِّب بالطّفح بشرة الصدر ويرقشها بشتّى أنواع البقع. لكن الشخص الذي يحدث له هذا لن يتعرّض مجددا لهجوم الصرع، ولذا فهو يفدي روحه مِن ضَناها بدمامةٍ بسيطةٍ في الجسد. أمّا من ناحية أخرى، إذا تمّ احتواء هذا التعفّن الخطير داخل الجسد واختلط مع المِرَّة السوداء وبذلك يتدفّق بقوّة عبر كل عِرقٍ شاقًا طريقه صعودا إلى الرأس وغامرًا الدماغ بمجراه الماحق، فإنه يُضعِف على الفور ذلك الجزء الملكيّ من النفس الذي يستمدّ من العقل لُبّه والمتوّج به رأس الإنسان

---

[130] يتحدّث أفلاطون عن القوى الثلاث التي تشكل كينونة الإنسان في مؤلفه تيماوس: "لذلك جعل الإله الكون كرويًا، مستويا، سلسًا ومثاليا. يتسارع على الدوام رفقة الروح. وحيدا ومكتفيا بذاته. لكنه لم يخلق الروح بعد الجسد، كما نتحدث بفضاضة عن ذلك. لكن بالأحرى، وبما أن الروح ستكون سيّدة وملكة على الجسد، فقد صاغها في البدء من ثلاثة عناصر، من الذات ومن الآخر ومن الجوهر...".

- Plato, The Timaeus Of Plato Edited with Introduction and Notes by R. D. Archer-Hind, M.A. Macmillan 1888. 35a-36d. p. 103.

[131] انظر:

- Ibid., p. 308- 316.

كونه قلعتُه وبلاطُه، وهكذا يغمرُ ويَفيضُ بالحيرة على قنوات الألوهيّة وَصُرُط الحكمة. أثناء النوم يكون ذلك أقلّ اضطرابا، ولكن عندما يمتلئ الناس باللحوم والنبيذ فهو يجعل وجوده غير مريح إلى حدٍّ ما بسبب الإحساس بالاختناق وهو نذير الصرع. أمّا إذا بلغ تلك القوّة لمهاجمة رؤوس الأشخاص وَهُم في واسع صحوتهم فإنّ عقولهم تشتدّ تلبّدا بسحابةٍ مفاجئةٍ من الانشداه وينهارون أرضا، وهكذا تفقد أجسادهم الشعور والإدراك كما في الموت ويُغمى على أرواحهم معهم. ولذا لم يَصُغه أسلافنا بالمرض العظيم والمرض المجلسي[132] فقط بل بالمرض الإلهي أيضا، وفي هذا شَبهٌ بالإغريق الذين يطلقون عليه 'المرض المقدّس'. هذا الاسم مُنصف لأنّ هذا السّقم يُسيء للجزء العقلاني من الروح والأقدس على الإطلاق بين كلّ الأقداس.

51- أنت تُميّز نظرية أفلاطون يا ماكسيموس بقدر ما تمكّنتُ من إعطائها تفسيرا نيّرا في ما أتيح لي من وقت. أنا أضع في قوله كلّ ثقتي حين يعزو الصرع لاجتياح هذا الخلط الموبوء للرأس، ولذا كان استفساري وجيها على ما أعتقد حين سألتُ المرأة إن كان رأسها يشعر بالثّقل ورقبتها بالخدر وأصداغها بالارتجاج وأذناها بالطنين. كانت حقيقة إقرارها بأنّ هذه الضوضاء أكثر تواترا في أذنها اليمنى دليلا على أنّ المرض استشرى في كيانها، وبما أنّ الأعضاء اليمنى من الجسم هي الأقوى فإنّ إصابتها بالمرض تترك أملا ضئيلا في التعافي. وقد ترك أرسطو في الواقع ملاحظاته في مؤلّفه 'إشكاليات' بأنّ السّقم حين يستفحل في الجانب الأيمن لدى مرضى الصرع يكون علاجهم عصيًّا[133]. سيطول بي الأمر لو كرّرتُ رأي ثيوفراستوس أيضًا في موضوع الصرع كونه ترك أطروحة مُتقنة

---

[132] المرض المجلسي. سمّي هكذا لأنّه إذا حدثت حالة صرع أثناء اجتماع الكوميتيا، مهما كان سبب الاجتماع، يتم فضّ وتفكيك المجمّع على الفور. في النص يشرح أبوليوس باسهاب سبب دعوته بالمرض الإلهي والمرض المقدس عند القدامى.

- Proceedings of the sixth Minnesota State Conference of Charities and Correction, Volumes 6 à 11. St. Paul Min: The Pioneer Press Company, State Printers. Minnesota 1898. pp. 59-60.

[133] أنظر:

- Aristotle, The Works of Aristotle, The Famous Philosopher. A New Edition In Four Parts. W. Osborne & T. Griffin. London, 1797. pp. 258-259.

للغاية عن التشنّجات[134]. ومع ذلك فقد أكّد في كتاب آخر عن موضوع الحيوانات العدائيّة تجاه الجنس البشري أنّ جلود السّمندر - والتي تتوارى مثل الزواحف الأخرى في فترات زمنية محدّدة لتجديد شبابها - تعتبر علاجًا للنوبات، ولكن ما لم تلقف الجلد فور طرحه فإنهم ينقلبون إليه مباشرة ويلتهمونه سواء كان عن خُبثٍ لمعرفتهم المُسبَقة بقيمته لدى الرجال أو عن مذاقٍ طبيعي له[135]. ها قد ذكرتُ هذه الأمور وحَرِصتُ على اقتباس حجج الفلاسفة المشهورين وعلى ذِكرِ الكتب التي تضمّنتها وتجنّبتُ أيّ إشارة إلى أعمال الأطبّاء أو الشعراء عسى أن يكفّ أعدائي عن التعجّب من أنّ الفلاسفة ثَقِفوا قضايا العلاجات والأمراض في السياق الطبيعي لأبحاثهم. والآن، طالما جيء بهذه المرأة لأتفحّصها بُغية علاجها ولأنه من الواضح سواءً من شهادة الطبيب الذي أَحضَرها أو من الحجج التي أشرتُ إليها للتوّ أنّ سياقا كهذا كان صائبا تماما، فعلى خصومي أن يؤكّدوا بأنّ علاج المرض من صنيع السحرة والسفلة. فإن لم يجرؤوا على قول ذلك فما لهم إلا أن يعترفوا بأنّ اتهاماتهم بخصوص الولد والمرأة مريضيْ الصرع كانت منافية للصواب والعقل، وأنها كانت متهافتة تماما.

52- فعلا يا أيميليانوس، إن أردتَ سماع الحقيقة فقد أخذَ منك المرض الساقط كلّ مأخذٍ، فغالباً ما تداعت اتهاماتك الزائفة وألقتك مغلوبا على أمرك أرضًا. وليس أسوأ حقّا أن يهوي المرء بِجَسده من أن يتردّى بوِجدانه ولا أن ينهدّ بِقَدَمِهِ من أن يتداعى بِجَنانِه، ولأن يُنبذ المرء لوحده في فراشه لأهونُ وحقّ السماء من أن يُرى من هذا المحفل المتميّز بعين الاشمئزاز. ربما تحسبُ نفسك سليم العقل لأنك غير مُقيّدٍ خلفَ أبوابٍ، لكن اتّبع تلقينات جنونك إلى أيّ مكان تقودك، بل وقارن مع ثالوس ما يغشاك من خَبلٍ، بالكاد ستجِدُ ما يَفْرِقك عن ثالوس عدا أنّه يحصرُ هيجانه لنفسه وأنتَ

---

[134] يؤكد ديوجنس أنّ ثيوفراستوس ترك كتابا عن مرض الصرع.

- Diog. Laert. V. 2.

[135] يؤكد بليني هذا الأمر في مؤلفه التاريخ الطبيعي: "يخبرنا ثيوفراستوس أن السمندرات ترمي جلودها مثل الحيّة وتلتهمها على الفور، مما يحرمنا من علاج قوي للصرع".

- Plin, Nat. 8. 49.

تُوجّهه ضدّ الآخرين. ثالوس يُشوّه عينيه وأنتَ تُشوّه الحقيقة. ثالوس يقبض يديه باختلاج وأنتَ لا تقلّ عنه تشنّجا مع أشياعك. ثالوس يكبو على الأرصفة وأنت أمام مجلس القضاء. بعبارة موجزة، أيًّا كان ما يفعلهُ فهو من جرّاء مرضه دون إدراكٍ، أمّا أنتَ يا خسيس، ترتكبُ جرائمك وأنتَ تَعِي وتدري، مُستلهِما أفعالك من سوْرة المرض. أنتَ تختلق الكذب وتقدّمه كحقيقة، ثم ترمي الرجال بما لم يحدُث أصلا، ومع أنك تدري ببراءة الرجل تمضي في اتّهامه كما لو كان مذنبا.

53- بل وتعترف بِجهلك لبعض الأشياء - والتي كِدتُ أن أنسى ذِكرها - ومع ذلك تجعل منها قرائن كما لو كُنتَ مُلمًّا بها. تزعمُ أني احتفظتُ بشيء غامض لففتُهُ في منديل بين آلهة البيت في منزل بونتيانوس. أنت تعترفُ بِجهلك لما قد تَكُونه طبيعة أو مظهر هذا الشيء، كما تقرّ أيضا بأنّ لا أحد رآه من قبل، ومع ذلك تؤكّد أنه كان أداة للسحر. ما بِوسعنا تهنئتك على دعواك فاتهامُك لا ينمّ عن حصافةٍ ولا حتى صفاقةٍ. لا تعتقد ذلك ولو لبرهةٍ. أبدًا! إنه لا يُظهر أيّ شيءٍ عدا روحٍ ساخطةٍ تهوّعت من المرارة وشيخوخةٍ شكِسةٍ شَرِقت بالغيظ والبغضاء. لقد دفعتَ بهذه الكلمات تقريبا في محضر قاض نافذ البصيرة والإدراك: "احتفظَ أبوليوس بأشياء ملفوفة في قطعة قماش بين آلهة البيت بمنزل بونتيانوس. بما أني لا أعرف ما كانت عليه فأنا أزعمُ أنها كانت سحرية. أترجّاكم أن تصدّقوا ما أقول لأني أتحدّث عن تلك التي لا أعرف عنها شيئًا". يا لها من حجّة خارقة والتي في حدّ ذاتها دحضٌ قاطعٌ للتّهمة نفسها: "لابد أنها كانت كذلك، لأني لا أعرف ما كانت". أنت لِوَحدك من اكتُشف حتى الآن والذي يعرف ما لا يعرفه. أنت تتفوّق بجدارة على كل الآخرين في الحماقة. فبينما يؤكد أولو الأبصار من فلاسفة الفكر أنّ علينا ألا نثق حتى في الأشياء التي نراها، فأنت تُقدّم إفادات حول أشياء لم يَسبِق لك أن رأيتَها أو سمعتَ بها. لو كان بونتيانوس على قيد الحياة وَقُمت بسؤاله عمّا يحتويه القماش لأجاب أنه لا يدري. هناك الشخص المُعْتَق الذي لا يزال وصيّا على مفاتيح المكان، هو أحد شهودك، لكنه يقول إنه لم يتفحّص هذه الأشياء أبدا على الرغم من أنه دأب كخادمٍ مسؤولٍ عن الكتب المحفوظة هناك على فتح الأبواب وغَلقِها كل يوم

تقريبًا، وكثيرا ما دخل الغرفة برِفقتي ولكن في أكثر الأحيان بِمُفرده، وقد رأى القماش مُلقى على الطاولة غير محميّ بِخَتمٍ أو عقدةٍ. طبيعي للغاية، أليس كذلك؟ تم إخفاء الأشياء السحرية في الكتّان ولهذا السبب لم أُلقِ بالغ الاهتمام لِحفظها في أمان، لكني تركتُها على أيّ حال لتُفحص وتُعايَن بحرّية من أيّ كان، أو ليأخذها أحدهم بعيدًا إلى أيّ مكان! عَهدتُ بها لرعاية الآخرين. سلّمتُ أمرها لمشيئة الغير! كيف تَحمِلُنا على تصديقك بعد الآن؟ هل لنا أن نؤمن بأنك، يا من لم ألقِ أبدا ببصري عليه إلا في هذه المحكمة، تعرف أنّ بونتيانوس الذي شاركني نفس السقف كان جاهلا بالأمر؟ أو هل علينا أن نعتقد أنك، يا من لم يسبق له أن دنا من الغرفة التي وُضعوا فيها، رأيتَ ما لم يره المُعْتَق مطلقا رغم ما أتيحت له من فرص لتفقّدهم أثناء مواظبته على أداء واجباته؟ باختصار، ما لم ترهُ من قبل لابدّ أنه يكون ما تؤكّده أنت! ومع ذلك يا أحمق، لو نجحتَ في هذا اليوم بالذّات في جلبِ هذا القماش بين يديك، لأنكرنّ الطبيعة السحرية لكل ما قد تُقدِّمه عنه.

54- أنا أمنحك رخصة تامة فابتكر ما تشاء، ارتق بذاكرتك وخيالك لاختلاق شيء قد يبدو وكأنه ذو طبيعة سحرية. حتى وإن وُفِّقتَ في ذلك لأجادلنّك في الأمر. سأدّعي أنك دسستَ هذا الغرض عوضا عن الأصلي أو أني تلقّيتهُ كعلاجٍ أو أنه كان شعارًا مقدّسًا في حِفظي أو أنّ رؤيا قَضت بأن أَلُفّهُ هكذا. هناك أَلْفُ طريقةٍ أخرى يمكنني من خلالها أن أدحضكَ بِمُطلق الصّدق ودون تقديم أيّ تفسير خارقٍ أو خارج المعهود. أراك تبتغي إدانتي من وراء ظرفٍ لن يضرّ بي في نظر قاضٍ صالحٍ حتى وإن تم إثباته إلى أقصى حدّ، طالما يستند على لُبسٍ يلفّه الغموض والريبة والجهل. ربما ستقول كالعادة 'إذن، ما الشيء الذي لَففتَهُ بقطعةِ قُماشٍ من الكتّان وحَرِصتَ بشدةٍ على إيداعه مع آلهة المنزل؟'. حقا يا أيميليانوس! أهكذا تتّهمُ ضحاياك؟ أنتَ لا تُقدّم دليلاً قاطعا بنفسك بل تطلبُ من المتّهَم توضيحات لكل شيء. 'لِم تبحث عن السمك؟ لِم فحصتَ امرأة مريضة؟ ما الذي دَسستَهُ في منديلك؟'. أأتيتَ هنا لتتّهمني أو لتستجوبني؟ إن أتيتَ تتّهمني فَأقِم حُجّتك بنفسك، وإن جِئتَ تُسائلني فلا تختلق قصصا من رأسك، فما

حاجتُكَ بِسؤالي إلا لِجهلك بما حصل. لئن سلّمنا بما سَبَقَ وأعفينا المتَّهم من إقامة البيّنة على دعواه ومكّناه فوق ذلك بكلّ السّبل لاستجواب المتّهَم فلا أحد في أنحاء المعمورة إلا وسيورّط بتهمة أو بأخرى، بل سيوظَّف بالأحرى كل ما سبقَ وفَعله في أيّ وقت مضى كذريعة لأيّ شخصٍ يتّهمه بالشعوذة. أكتبتَ أُمنية على فخذ تمثال ما؟ ها أنتَ ساحر! وإلا فلِم كتبتَها؟ أهمستَ بصلوات صامتة للآلهة في معبد ما؟ ها أنتَ ساحر! وإلا فاخبرنا بما طلبتَه؟ أو تأتينا على نحو معاكس. أنتَ لم تتلفّظ بأيّ صلاة في أيّ معبد! أنت ساحر إذن! وإلا ويحك لِماذا لم تسأل الآلهة شيئا؟ سَيُؤخذُ بالحجّة ذاتها إن منحتَ نُصُبًا أو قدّمتَ قُربانًا أو حملتَ أغصانًا من أيّ نبتةٍ مقدسةٍ. سيخذلني اليوم بطوله إن حاولتُ المضيّ قُدما بين مختلف الظروف أين يطلب المتّهِم المفتري على هذا الأساس تعليلا. وفوق ذلك كلّه، أيّا كان الشيء الذي أبقَى عليه مخفياً أو مُخزّناً بِقفلٍ ومفتاحٍ في المنزل سيتم تأكيده بنفس الحجّة على أنه ذو طبيعة سحريّة أو يتمّ سحبه من دولابه إلى ضوء محكمة القانون أمام المِنصّة.

55- قد أتحدّث باستفاضة أكبر عن جوهر وخطورة اتهامات كهذه، عن الفيض الواسع من البهتان الذي يُغدق به هذا الدرب على أيميليانوس، عن عُبَاب العرق الذي يَنتحُهُ هذا المنديل البسيط من كل الأبرياء خِلافًا لواجبه! لكني سأتّبع المسار الذي انتهجتُه مسبقا وَأُقرّ بما لم يكن من الضروري الإقرار به، وسأجيب على أسئلة أيميليانوس. أنت تسأل يا أيميليانوس عمّا احتواه المنديل؟ ولو أني قد أنكر إيداع أيّ منديل في مكتبة بونتيانوس أو حتى أقرّ بإيداعه في أقصى الظروف وأُنكر باستمرارٍ لفّ أيّ شيء فيه.

إن اتّبعتُ مسارا كهذا فأيّ دليلٍ أو حجّةٍ تدحضني بها إن لم يَسبِق لأحد أن لمسها أبدا عدا مُعتقٍ واحدٍ رآها طِبقا لما أكّدت طبعا. وبقدر ما يعنيني الأمر سأعترف بأنّ قطعة القماش كانت غاصّة بما فيها، ولك أن تضع نفسك على شفا اكتشاف عظيم تماما كرفاق يوليسيس، إذ ظنّوا أنفسهم قد وقعوا على كنزٍ حين شَرَموا القربة الغاصة

بالرياح[136]. أتريدني أن أُطلعك على ما أودعتُه في منديلٍ وأوكلتُه إلى رعاية آلهة منزل بونتيانوس؟ فليكن لك ذلك. لقد لُقّنتُ في مختلف الأسرار الإغريقيّة، وأصون بمنتهى العناية بعض الشارات والتذكارات الخاصة بمباشرتي لذلك والتي أهداني الكهنة إياها. ليس الأمر بالغريب أو المريب. مِن بين الحضور هنا أناس لُقِّنوا في العديد من أسرار الأب ليبر وحده، يدرون بما تحفظهُ في البيت خفيّا[137]، في مأمنٍ من كل لَمَسةٍ دَنِسةٍ والحَرَم في تعبُّدك الصامت. أنا أيضا وكما قلتُ، تعلّمتُ خبايا شتى وعددا هائلا من الطقوس وعديد المراسيم، يحدوني في أمري حماسي الديني ورغبتي في معرفة الحقيقة. وما ذلك بصنيعة الظرف أو الحال، فمذ ما يقرب من ثلاث سنوات أي إقامتي الأولى في أويا، أبديتُ ذات التّجِلّة في خطابٍ ألقيتهُ للعامّة حول عظمة آسكليبيوس[138]، وسردتُ فيه ما أعرف من الطقوس. للخطبة ذِكرٌ طنّان، يقرؤها القاصي والداني وتتناقلها الأيادي، وما استمدّت شُهرتها من بلاغتي بقدر ما شَغفَ ذِكرُ آسكليبيوس قلوب أهالي أويا الأتقياء. هل لأحدكم إن صادف وتذكّره أن يكرّر فاتحة ذاك المقطع عينه في خطابي؟

---

[136] يستذكر أبوليوس من أوديسة هوميروس المقطع: "... تعالوا، دعونا نرى سريعًا ما هو موجود هنا، ما مخزون الذهب والفضّة في القربة. هكذا تكلّموا. وساد الشر مشورة رفاقي وقاموا بفتح القِربة، وهكذا ارتفعت كل الرياح، وسرعان ما استولت عليهم رياح العاصفة وحملتهم وهم يبكون في البحر بعيدًا عن أرضهم الأصلية، أمّا بالنسبة لي، فقد استيقظت وتفكّرت في قلبي الطيّب أعليّ أن أبرح السفينة وأهلك في البحر، أو أتحمّل في صمت وأبقى بين الأحياء".

- Homer, Odyssey. X. 31-49.

[137] الأب ليبر أو ليبر باتر. أطلق عليه كذلك باخوس. أقدم تجسيد مؤكّد عليه يدعى 'Cista' وهو صندوق من البرونز يُحفظ بوقار، والذي من المفترض أنّ أبوليوس يتحدّث عنه.

- Michael Gagarin, The Oxford Encyclopedia of Ancient Greece and Rome, Volume 1. Oxford University Press, 2010. p. 352.

[138]اسكليبيوس. نشأت عبادة هذا الإله الذي قيل أنه ابن أبولو في إبيدوروس، مقرّ ضريحه الرئيسي. ومن ثمّة أصبحت منتشرة بشكل عام. أقام كهنته في إبيدوروس مشفى كبير كان يتمتّع بسمعة طيبة، وكانت الطريقة الشائعة للعلاج تتمثّل في السماح للمرضى بالنوم في المعبد، فإن كانوا متحمّسين في صلواتهم يظهر لهم هذا الإله في المنام ويكشف لهم عن العلاج اللازم. أمّا عبادة هذه الإله في روما فقد وجدت طريقها سنة 291 قبل الميلاد، نتيجة للأوبئة الشديدة التي أدّت لسنوات إلى إخلاء المدينة والأرياف من سكانها، أين تمّت استشارة كتب العرافة وتقرّرَ جلبُ هذه العبادة إلى روما.

- Otto Seemann, The Mythology of Greece and Rome: With Special Reference to its Use in Art. Harper & brothers, 1887. pp. 111-112.

أتسمعُ يا ماكسيموس كم من الأصوات تأتي على ذِكرِ الكلمات. سأطلب قراءة هذا المقطع نفسه بصوت عالٍ طالما تُبدي ببريق أساريرك أنّ صدرك لن يتوغّر بسماعه. (تتم قراءة المقطع بصوت عالٍ)

56- أَيُعقل لأحدٍ يحظى بأدنى ذِكرٍ عن طبيعة الشعائر الدينية أن يحتارَ في إقدامِ شخصٍ لُقِّن الكثير من الألغاز المقدّسة على حِفظِ بعض الطلاسم المرتبطة بهذه المراسيم في البيت ولَفِّها بقطعة من الكتّان والذي هو أنقى غطاء للمقدّسات؟ بعكس الصوف المُنتَج عن أكثر المخلوقات بلادة والمُجتَزّ من ظهر الخِراف، فارتداؤه محرّم على أتباع أورفيوس وفيثاغورس لهذا السبب بالذات كونه غير مقدّسٍ ودنسٍ[139]. في حين أنّ الكتّان الأنقى مما تُغِلُّه الأرض والأطيبُ بين ثمارها، لم يستخدمهُ كُهَّان مصر الأتقياء حصرا للأفرشة والكساء بل كحجاب للمقدّسات. ورغم هذا فإنّ البعض ومن بينهم صاحبنا أيميليانوس يتهكّمون بالأشياء الربانية من باب الفكاهة. فحسب ما بلغني من بعض رجال أويا الذين يعرفونه، لم يُصلِّ حتى هذا اليوم لأيّ إله وما تردّد يوما على أيّ معبدٍ، وإن صادف وأن مرّ على موضعٍ قُدسٍ فهو يستنكف عن رفع يده إلى شفتيه كإيماءَة وقار. بل لم يسبق له أن قدّم بواكر المحاصيل أو الكروم أو القطعان لأيّ من آلهة الحقول الذين يطعمونه ويكسونه، ولا تحوي مزرعته على أيّ محراب أو أيّ مقام مقدّس ولا حتى بستان. وما لي أتحدّثُ بنفسي عن الجنائن والمواضع القُدُس؟ وأولئك الذين كانوا في مِلكيّته يقولون إنهم لم يسبق وأن رأوا نُصُبا بورك بهبةٍ من الزيت أو أُملوجا عُلِّقت فيه الأكاليل. ولهذا السبب لُقِّبَ بِكُنيتين: يُدعى خارون كما ذكرتُ، بسبب الشؤم في نفسه وطلعته. كما يُدعى أيضًا باسم يُفضّله وهو ميزنتيوس[140] لأنه يحتقر

---

[139] يقول هيرودوتس: "هم يرتدون سترة من الكتّان بحواف تتدلى حول الساقين تسمى 'كالاسيريس' وعباءات فضفاضة من الصوف الأبيض فوقها، ولكن لا شيء من الصوف يدخل في المعابد أو يدفن معهم، لأن هذا إثم. هم يحاكون في هذا الأمر شعائر يطلق عليها 'أورفيك' و'باشيك'، هي في الواقع مصرية وفيثاغورسية ...".

- Herodotus, The Histories. 2. 81.

[140] ميزنتيوس. يقول فيرجيل في الإنيادة: "في القتال قبل كل شيء، أتى ميزنتيوس من شواطئ إترورِيان مزدريا ومتمرّدا على الآلهة، وكل شعبه بالسلاح، وبجانبه لوسوس وريثه ...".

- Vergilius, Aeneid. 7. 647.

الآلهة. ولذا أجدهُ مسوغا أنّ عليه النّظر إلى قائمة شعائري من باب السخريّة، بل من المرجّح أنه بسبب نبذه للأشياء الإلهية قد لا يكون قادرا على إقناع نفسه بأنني أحرص ببالغ الوقار الشارات والآثار المقدّسة من الشعائر الغامضة. لا أهتمّ بتاتا بما قد يتصوّره ميزنتيوس عني، لكن بالنسبة للآخرين فأنا أُصدر هذا البيان بكل وضوح وجلاء: إن كان أحد الحاضرين منكم هنا قد شارك معي في تلك المراسم المهيبة فلتُصدِر إشارة وستطّلعُ على ما احتفظُ به، فلن يدفعني وازع السلامة الشخصيّة لأكشفَ للعامة أسرارا تلقّيتُها وأقسمتُ على إخفائها.

57- ها قد كفّيتُ ووفّيتُ يا ماكسيموس وأرضيتُ حتى أكثر الناس تَحامُلا، ولو أنّ الأمر تعلّق بمنديلٍ فقد برّأتُ نفسي من أيّ ذرّة شُبهةٍ. وهكذا أمضي ببالٍ مرتاحٍ من مظانّ أيميليانوس إلى أمارات كراسوس والتي تلاها متهميّ في ما بَعدُ بوصفها الأشدّ إفحاما. لقد سمعتَهم يقرؤون من إقْرارٍ مكتوبٍ شهادةً لِلَعْمظٍ همجي لا يُرجى لِبِطنته دواء يدعى يونيوس كراسوس أني أدّيتُ بعض الطقوس الليليّة في منزله رفقة صديقي أبيوس كوينتيانوس الذي كان يكتري بيته للسّكنى. يدّعي كراسوس هذا - لتتأمّل ذلك - أنه اكتشف الأمر بِرَصدِه ريش الطيور ودخان اللّهب مع أنّه كان في حقيقة الأمر بعيدًا في الإسكندرية آنذاك!

أنا أتخيّلهُ يتتايعُ مُنتشيًا من خمّارة لأخرى في الإسكندرية - إذ لا يحول بين كراسوس وشراهته حتى ضوء النهار بِحُرمته - وإذ به يرصدُ من حانته العَفِنة هناك بِعينٍ ثاقبةٍ كأي قنّاصٍ ريشَ الطيور يتطايرُ صوبه من منزله، ويلمحُ دخان منزله يتصاعدُ بعيدًا عن السّقف الخشبيّ لأسلافه. إن رأى هذا بعينيه فقد بَصُر بأبعد بكثير مما تضرّع وتاقَ يوليسيس لرؤيته[141]، فقد أمضى يوليسيس سنوات في التحديق عبثا من الشاطئ لرؤية الدخان يتصاعد من بيته، بينما أفلح كراسوس في مغيبه عن المنزل بضعة أشهر ودون أدنى صعوبة في رؤية نفس الدخان وهو يترنّح في خمارة! فإن كان من ناحية أخرى

[141] يقول هوميروس: " لكن أوديسيوس في شوقه، كان لا يتّوق إلا لرؤية الدخان المتصاعد من أرضه".

- Homer, Odyssey. I. 58.

قد ميّز بأنفه رائحة الدخان، حتى وإن فاقت حاسّته للشمّ كلاب الصّيد والعُقبان، فهل بِوسعِ أيّ كلبٍ أو أيّ نسرٍ يحوم في سماء الإسكندرية أن يشمّ رائحة من مكانٍ قصيٍّ كأويا؟ أنا أقرّ بأن كراسوس مِبطانٌ من الدرجة الأولى وخبيرٌ في كل النَّكهات، إلا أنه بالنّظر لِولعه بالشرب وهو مجاله الوحيد في الخبرة، كان الأمر ليكون أسهل لأبخرة نبيذه عوضا عن أدخنة مِجمَرته أن تَبلُغَهُ في الإسكندريّة.

58- وقد أدرك بنفسه أنّ ذلك لن يؤخذ على محمل الصدق، إذ قيل إنه باع هذه الأدلّة قبل الثامنة صباحا وهو لا يزال على ريقه! وهكذا دوّن اكتشافه على النحو التالي: فور عودته من الإسكندرية اتّجه مباشرة إلى منزله الذي أخلاه كوينتيانوس في ذلك الوقت، وهناك صادف في الرّدهة ريشا مبثوثا، ووجد الجدران أيضا مسودّة بالسّخام فاستوضح السبب من عبده الذي تركه في أويا، وهذا الأخير أبلغه بالطقوس الليليّة التي أدّيتُها رفقة كوينتيانوس. يا لها من كذبة بارعة! يا له من تلفيق مرجّح! أني إن رغبت في فعل شيءٍ من هذا القبيل فعليّ القيام به هناك بدلاً من منزلي! أنّ كوينتيانوس الذي يشدّ هنا عضدي وآتي على ذكر اسمه ببالغ الاحترام والشرف لقاء المحبّة الوثيقة التي تربِطُه بي ولعمق عِلمهِ وذلق لسانه، أنّ كوينتيانوس نفسه، إن تناول فَرَضًا بعض الدواجن في عشائه أو قتلَهم لمآرب سحرية كما يدّعون، كان من المفترض ألا يكون لديه أيُّ عبدٍ لكنس الريش وإلقائه خارج الأبواب! أو علاوة على ذلك فقد كان على الدخان أن يكون قويًا بما يكفي لتسويد الجدران وأنّه كان على كوينتيانوس تحمّل وَضرٍ كهذا في الحُجرة التي نام فيها طيلة الوقت الذي كانت فيه تحت تصرّفه. هذا هراء يا أيميليانوس! لا توجد أرجحيّة في الحكاية ما لم يندفع كراسوس بعد عودته لا إلى غرفة النوم بل رأسا إلى المطبخ كعادته. وما الذي دفعَ عبده للشكّ في أنّ الجدران قد سُوّدت بالليل تحديدا؟ أَمِن لون الدخان؟ أيختلفُ دخان الليل عن دخان النهار في كونه أكثر سوادا؟ وكيف لعبدٍ يَقِظِ العين والضمير أن يسمح لكوينتيانوس بمغادرة المنزل قبل تنظيفه؟ وكيف لهذا الريش أن يفترش الأرض كالبساط منتظرا كل هذا الوقت وصول كراسوس؟ علينا ألا نسمح لكراسوس بتوريط عبده، فالأرجح أن يكون هو نفسه من اختلق هذا الهراء

الكاذب عن الريش والسّخام لأنه لم يكن قادرًا حتى في شهادته على أن يفصل نفسه عن مطبخه.

59- ولِم قرأتَ هذه الشهادة من إفادة مكتوبة؟ في أيّ مكان من العالم يوجد كراسوس؟ أعاد إلى الإسكندرية قَرفًا من بيته؟ أو يقوم بغسل جدرانه؟ أم أنّ اللّعمظ يشعر على الأرجح بالتوعّك بعد الفجور؟ أنا عن نفسي رأيتهُ هنا في صبراتة بالأمس وهو يحوزقُ في وجهك يا أيميليانوس بأكثر الطرق وضوحا وسط السوق. أُدعُ يا ماكسيموس، سَلْ عبيدك الذين يبقونك على اطّلاع بأسماء الأشخاص - ولو أني أقرّ بأنّ كراسوس معروفٌ أكثر لحُرّاس الحانات - ومع ذلك سَلْهم إن رأوا من قبل يونيوس كراسوس الأويي في هذا المكان. قطعا سيؤكّدون ذلك. لِيُقدّم أيميليانوس إذن هذا الشاب الأشمّ والذي يعتمد على شهادته. أنت تنتبه إلى وقت اليوم. أؤكّد لك أنّ كراسوس كان يغطّ من زمانٍ في غفوة السّكران أو أنّه أخذ حماما ثانيا والآن يُطلِق من الحمّام بُخار عَرَق الثّمالة عسى أن يكون سويّاً لجولة شُربٍ جديدة بعد العشاء. هو يقدّم نفسه في إفادة خطية فقط، وبها يخاطبك يا ماكسيموس. حتى إنه لم يتَوَارَ تماما بدافع الشعور بالحياء إذ لا يشقُّ عليه الكذب في وجهك دون استحياء. ولكن ربما يوجد سببٌ آخر لغيابه. لعلّه لم يكن قادرًا على الامتناع عن كأس النبيذ ما يكفيه من وقتٍ للحفاظ على اتّزانه بُرهةً من الزمن، أو ربما حَرِص أيميليانوس وبشدة ألّا يذعنَ لِنَظرتِك الاستقصائيّة والصارمة خشية أن تلعن هذا البَهِيمِيّ ذا الذّقن الحليق ومظهره المقزّز بمجرد الإيماء بالبصر في وجهه، لدى رؤيتك شابًا بملامح مجرّدة من زينة اللّحية والشَّعر وعينيه المثقلتين بالنبيذ وجفونه المنتفخة وشدقيه الواسعين وشفتيه الرائلتين وبُحَّة صوته ورجفة بنانه ورائحة أنفاسه التي تستمدّ نكهتها من متجر الطبخ. حتى ثروته سَرَطها منذ أمدٍ وما تبقى له من ميراثه شيء عدا مسكن يؤجره لبيع الأكاذيب، كما لم يسبق له وأن أبرم اتّفاقا مربحًا أكثر مما فعله في هذه الشهادة التي يقدّمها اليوم، إذ باع لأيميليانوس أوهام ثمالته مقابل 3000 سيسترس كما يعلم بذلك كل فرد في أويا.

60- وحتى قبل الواقعة أحطنا بالأمر خُبرا، وكان بإمكاني أن أَحُولَ دون إتمام الصّفقة بالإبلاغ عنها، لكني علمتُ أن كِذبةً بهذا الحدّ من الغباء ستُضرّ بأيميليانوس الذي هَدرَ مالاً مُقابِلها، لا بي أنا الذي أَوفيتُها حقّها من ازدراءٍ. لم يقِف رجائي على رؤية أيميليانوس يهدر ماله فحسب بل على كراسوس وهو يرى سُمعتَهُ تنهار بمعرّة شهادة الزور هذه. أمّا الصّفقة فلم تتمّ إلا ما قبل الأمس دون أدنى احتراز من أعين الناس في منزل روفينوس والذي في جُعبتي ما سأقوله عنه. إذ أدى روفينوس رفقة كالبيرنيانوس دور الوسطاء ورتّبوا لعقد الصفقة، وكان الأول جِدَّ حريصٍ على إتمام المهمّة لأنه كان على يقينٍ من أنّ زوجته والتي يتغاضى بِدرايةٍ عن سيرتها الضالّة، سَتُحصّلُ من شهادة كراسوس بالزور حِصّة معتبرة من العمولة. وقد لاحظتُ أنك أيضا يا ماكسيموس ارتبتَ بفطنتك المعهودة فور تقديمهم لهذه العريضة بأنهم تحالفوا وتغايوا على رأسي، ورأيتُ من ملامحك أنّ القضيّة بِرُمّتها أثارت حفيظتك. وفي نهاية الأمر، لم يجرؤ متهميّ رغم ما أوتوا من جَسارةٍ صلفةٍ ووقاحةٍ صرفةٍ على قراءة شهادة كراسوس مُكتملة أو بناء أيّ شيء عليها، لأنهم رأوا أنه كلما ذُكر اسمهُ ارتبتَ من أمرٍ ما. ها قد أتيتُ على ذِكرِ الحقائق لا لِفَزعي من هذا الريش المرعب وَبُقع السّخام - خصوصا في حضرتك للحكم عليّ - بل لأنّ كراسوس قد يواجه العقوبة المستحقّة عن قيامه ببيع مجرّد دُخانٍ إلى ريفي مأفونٍ مثل أيميليانوس.

61- أشاروا لدى اقترائهم رسائل بودونتيلا لِجُرمٍ آخر يتعلّق بِصُنع مُجسّمٍ يدّعون أني صمّمتهُ من أندر خشبٍ ببعض الأساليب السرّية لأغراض الفنّ الأسود. بل ويضيفون أني، ولو أنّ النّظر فيه يبعثُ على الرّعب والتقزّز كونه يتّخذ شكل هيكل عظمي، أعطيتهُ شرفًا خاصًا وأدعوه 'باسيلوس' مَلِكِي باللسان اليوناني. أخالني محقا في القول بأني أتابع أطوار اتّهامهم بالترتيب وأُعيدُ بناء النسيج الكامل لفصول كذبهم بالتفصيل.

والآن، أنّى لهذا الختم أن يُصنَع خِفيةً كما تدّعون وأنتم على معرفةٍ تامةٍ بِصانعه، حتى إنّكم طلبتم مثوله أمام المحكمة؟ هاهنا الفنان كورنيليوس ساتورنينوس المشهود له بِحُسنِ الصَّنعة والصنيع بين سكان بلدته. والذي ردّ منذ قليل عن استجوابك الدقيق يا

ماكسيموس موضحا تسلسل الأحداث بفائق الصدق والأمانة. أَفصحَ عن زيارتي لمتجره، وبإمعاني النّظر في العديد من النماذج الهندسيّة التي نُحِتت جميعها من خشب البقس بمنتهى الروعة والإبداع، طلبتُ منه مشدودًا ببراعته أن يصنعَ لي بعض المعدّات الميكانيكية، ورجوته أيضا أن ينحتَ لي تمثالاً لأحد الآلهة التي أتعبّدها كعادتي. وما حدّدتُ في طلبي إلها ولا لِصُنعِه خامة عدا أني حَرِصتُ على أن يكون بالضرورة من الخشب. لذلك استهلّ العمل على البقس. في تلك الأثناء، وبينما كنتُ بعيدا في الريف، اشترى هرلي سيكينيوس بونتيانوس مدفوعًا بِنَفحةِ بِرٍّ تجاهي، بعض صفائح الأبنوس من تلك السيّدة الفاضلة كابيتولينا وأحضرها إلى ورشته، موصيًا إيّاه صُنع ما طلبتُ من هذه المادة الأندر والأبقى بالأحرى، قائلاً: 'هديّة كهذه، ستُشعرني بِسَعادةٍ بالغةٍ'. أخذ فناننا بمقترح بونتيانوس، وشرع في عمله مُستخدمًا قدر ما سمح به مقاس ألواح الأبنوس، وعن طريق الدّمجِ الحذرِ لأجزاءٍ دقيقةٍ من الألواح وُفِّق في صُنع تمثالٍ مُصغّرٍ لميركيوري.

62- ها قد أعدتُ ذِكرَ ما سَمِعتموهُ من حقائق، وهي تتطابق أيضا مع الإجابات التي قُدّمت لك في استجوابِ ابن كابيتولينا، وهو شابٌ خلوق حاضرٌ بيننا اليوم في المحكمة. لقد قال إنّ بونتيانوس من طلب الألواح، وإنّ بونتيانوس من أخذها إلى الفنان ساتورنينوس، كما أنّه لا ينكر أنّ بونتيانوس هو الذي استلمَ المجسّم المنجز من ساتورنينوس وبعد ذلك سلمّني إياه. إن أُثبِتت هذه الحقائق صراحةً وأمام الجميع، فهل بقي شيء يُضمِرُ شُبهة السحر؟ بل هل بقي شيء لا يدينكم قطعا بالكذب السافر؟ لقد ذكرتم أنّ الختم صُنِع خِفيةً، وقد أوعز صُنعَهُ بونتيانوس وهو عضو بارز في سلاح الفرسان، ونَحتهُ على مرأى الجميع ساتورنينوس وهو شخص سويّ الأخلاق والسيرة جالسا أمام ورشته، وجادت بعطائها من أجله سيّدة متزوّجة مرموقة النسب، وَعَلِم بأمر كُلٍ من الطاقم وإنجازه الكثير من المعارف والخدم الذين يرتادون منزلي. لم تستحوا من الادعاء زورا بأني أقمتُ الدنيا بحثا عن الخشب في كل أرجاء البلدة، مع أنّكم تدرون بغيابي عن أويا في ذلك الوقت، وثبوت أني طلبتُ صُنعَهُ من أيّة مادة متوفرة.

63- كانت كذبتكم الثالثة في الشّكل الذي صنعتُهُ إذ زعمتموه جُسمانا منخوبا، بل هيكلا منزوع الأحشاء من جثّة مروّعة، فضيعا تماما ومريعا كالشبح. إن اكتشفتم دليلا قاطعا كهذا على ممارستي للسحر فلِم لم تُلزِموني بتقديمه في المحكمة؟ ألأنّكم وجدتم مطلق الحريّة في تلفيق الأكاذيب بمغيب ما تطعنون فيه؟ إن كان الأمر كذلك فقد قَضبت عادةٌ لي بِحَبلِ كذبكم في الوقت المناسب، إذ اعتدتُ أن أحملَ أينما حللتُ تمثالا لأحد الآلهة مخفِيا بين كتبي لأتضرّع له في أيام العيد بِعَطايا من البخور والنبيذ وحتى الذبائح أحيانا. لذا لمّا سمعتُهم يؤكدون مرارا بكذبهم الفاحش أنّ المجسّم الذي حملتُه كان هيكلا عظميا، أمرتُ أحدا بالذهاب لبيتي وإحضار تمثالي المصغّر لميركيوري الذي قدّمه لي ساتورنينوس في أويا. أنتَ هناك، قدِّمه لهم! دعهم يرونه، امسكوه، تفحّصوه. إليكم التمثال الذي يدعوه ذاك الوغد هيكلا. أتسمعون صيحات الاحتجاج تتعالى من كل الحاضرين؟ أتسمعون إدانة كذبكم؟ ألا تخجلون أخيرًا من كل افتراءاتكم؟ أهذا هيكل عظمي، أهذا شبحٌ، أهذه هي الروح الشيطانية التي أكّدتم عليها؟ أهذا من كيدِ ساحرٍ أم تمثال عادي ومألوف؟ أترجاك يا ماكسيموس، خُذه وتفحّصه. من الجيّد أن يُعهدَ بِشيءٍ مُقدسٍ إلى أيادٍ نقيّة وتقيّة كالتي لديك. انظُر هناك، كم من الحُسن تَرى، كم هو مُفعمٌ بلياقة وقوّة المصارع! كم هو مُبهجٌ مُحيّا الإله، كم هي بَهِيّةٌ لحيته وهي تفترش جانبي وجنتيه، كيف ينسدل الشعر المجعّد حوالي رأسه لِيستظلّ بحافة خوذته، كم هو بارز ارتماء الزوج الصغير للجناحين حول حاجبيه، كم هو أنيق شدّ العباءة حول كتفيه! من يجرؤ على تسمية هذا بالهيكل العظمي إمّا أنّه لم يرَ يوما تمثالا للآلهة أو لا يُعيرها بالا، والذي يراه شبحا، لابد أن يكون ممسوسا حتما.

64- أمّا جزاءً على كذبك يا أيميليانوس، فأنا أدعو هذا الإله الذي يطوف بين أسياد السماء والجحيم أن يُحِلّ عليك سُخط الآلهة من كل العالمين، وأن يُرسل لملاقاتك على الدوام ظلال الموتى بأرواحها وشياطينها وأشباحها وعفاريتها من كل البقاع، وأن يحشر حوالي عينيك الرعب الذي تبثّه في الظلام رهبة الأجثاث وأهوال الأجداث، ولو أنك تدنو بمشيبك ومعيبك منهم كفاية. أمّا نحن الأفلاطونيين، لا نعرف إلا الرائق والميمون

والمهيب والمرموق والسنيّ في المكنون. بل في حَمِيّتها لبلوغ ذُرى الحكمة استجلت المدرسة الأفلاطونية أصقاعًا تفوق السماء رِفعةً واجتازت شفير الكون هذا مظفّرة. حتى ماكسيموس نفسه يُزكي ما أقول، لأنه في دراسته الدقيقة لفايدروس قرأ "عن علياء السماء، وعن مقامٍ رُفِع فوق السماء[142] ". كما يُدرك ماكسيموس أيضًا بوضوح - سأردّ الآن على اتّهامك بشأن الاسم - أني لست أنا بل أفلاطون من دعاه أولا بالمَلِك قائلا: "كل شيء يتوقّف على مَلِكِ كل شيء، وله وحده يحيا كل شيء". يعرف ماكسيموس من هو هذا 'المَلِك' وحتى المبعث والموجب والمنبت الأول لكل طبيعة، بارئ الروح ووليّها، مُخلّص الأحياء الأزليّ، البديع القيّوم لهذا الوجود، إذ يبنيهِ دون عمالةٍ، بل ويحفظهُ دون رعايةٍ. الوالد دون نسلٍ يُفضيه، لا مكان أو زمان أو حيّز يحويه، ولذلك لا يعقِلُه إلا نفرٌ قليل ولا قِبلَ لأحدٍ على وصفه[143].

65- بل سأبذل ما في وسعي لإثارة الشك في السحر. لن أخبرك يا أيميليانوس عن هذا الذي أعبده كمَلِكِي، حتى وإن سألني البروقنصل نفسه عن هويّة معبودي لأبقيتُ على صمتي.

لقد تحدّثتُ بما يكفي عن الاسم في الوقت الحالي. لا يفوتني في ما تبقّى أنّ البعض من جمهوري متلهّف لسماع السبب من وراء رغبتي ألا تكون البُنية من الفضّة أو الذهب بل خالصة من الخشب، ولو أني لا أرى في رغبتهم حِرصًا على تبرئتي بل فهمًا لخياري، فاستوضح بذلك هذه المرية الأخيرة، وأتخلّص إذاك من أدنى بصمة في أيّ جريمة. فأنصتوا يا من كنتم للمعرفة راغبين، ولكن استمعوا بقدر ما كنتم على الحرص والاهتمام قادرين، لأنكم ستستمعون لأقوال أفلاطون في شيخوخته من كتابه الأخير

---

[142] يقول أفلاطون في حوار فايدروس: "بالنسبة لأولئك الذين يُطلَق عليهم الخالدون، حين يبلغون القمّة ينفذون خارجا ويأخذون مكانهم في العلياء، وحين يتخّذون مواقعهم يأخذهم الطواف في جولة ويبصرون الأشياء من خارج السماء".

- Plato, Phaedrus. 247.

[143] يشرح الفيلسوف الأفلاطوني بروكلوس أو برقلس (القرن 5م) ما قاله أفلاطون بمنتهى الروعة، أنظر:

- The Six Books of Proclus, the Platonic Successor: on the Theology of Plato. Translated from the Greek By Thomas Taylor. 1816. p. 131.

'القوانين': "يَحسُنُ بالإنسان الوسط أن يتقدّم للآلهة بعطايا تتناسبُ مع مَقدِرتهِ". أمّا بعد: "الأرض ومواقد البيوت لكل الرجال مقدّسة لجميع الآلهة، فلا ينذرنّ أحدكم أضرحة للآلهة بالقرب منها". هو يُحرِّم ذلك لِمنع الجميع من تشييد الأضرحة الخاصة، لأنه يرى أنّ المعابد العامة تكفي السّاكنة لأغراض التضحية. ثم تابع قائلاً: "الذهب والفضّة في المدن الأخرى سواء في حِفظ الخواص أو المعابد مثارٌ للأطماع، العاج المأخوذ من جَسدٍ فارقته الحياة ليس قربانا مبرورا، الحديد والبرونز يستخدمان في الحرب. أيّا كان ما يُكَرّسه الرجل فليكن خالصا من الخشب أو الحجر"[144]. ها قد قُضي وأنتم ترون جلبة الحاضرين بالمباركة يا ماكسيموس وأنتم أيها السادة الذين تحظون بشرف مجالسته، أني وظّفت ببراعةٍ أفلاطون الذي أبديتُ امتثالا تاما لتوجيهاته، ليس فقط كَمُرشدٍ لي في الحياة، بل كَمُحامٍ عني في المحكمة.

66- والآن حان الوقت لأنتقل أولاً وقبل كل شيء إلى رسائل بودونتيلا، أو أعيد بالأحرى، مجرى الأحداث بالكامل إلى الوراء قليلا، لأني أرغب في توضيح أمري بما لا يدع للشكّ مجالا. إني، من يستمرون في اتّهامه باتّخاذ سبيله قسرا إلى منزل بودونتيلا طمعا، لم أكن لأدنو من هذا المنزل شِبرا لو كنتُ أنشدُ مالا. فما جلب لي زواجي لعديد الدواعي جَدَاء، ولم أكن لأراه إلا شؤما، لو لم أجد في شمائل زوجتي عَوضا لي وعزاء.

ولا أتصوّر سببا من جرّي إلى هذه المحاكمة إلا خيبة الأمل والحسد، فقد أحاقا دربي من قبل بعديد المكائد المُهلكة. وإلا فما الذي أثار حفيظة أيميليانوس مني حتى ولو سلّمنا بأهليّته حين اتّهمني بالشعوذة؟ لم أجرحهُ يوما ولو بكلمةٍ تجعله يبدو وكأنه ينشدُ الثأر. طبعا لا يدفعه طموح سامٍ لاتّهامي، كالذي دفع ماركوس أنطونيوس لاتّهام كنايوس

---

[144] يقول أفلاطون: "من اللائق لشخصٍ وسطٍ أن يقدّم قرابين وسطا. إنّ المدفن والموقد مقدّسان لكل الآلهة ولذا لا يجوز لأحد أن يكرّس من جديد ما هو مقدّس بالفعل. إنّ الذهب والفضة التي تُستخدم في البلدان الأخرى وفي المعابد مثار للحسد، والعاج الذي يأتي من جسد مجرّد من الروح ليس بالقربان المبرور، بينما يعتبر الحديد والنحاس أدوات للحرب. يجوز من الخشب المكوّنة من قطعةٍ أن يقدّم الرجل في المعابد ما يشاء، ومن الحجر أيضا، ومن المنسوجات المحبوكة ما لا يزيد عن إنتاج شهرٍ لامرأة".

- Plato, Laws. 12. 955e-956a.

كاربو، وكايوس موسيوس لاتهام أولوس ألبيسيوس، وبيبليوس سولبيسيوس لاتهام كنايوس نوربانوس، وكايوس فيريوس لاتهام مانيوس أكويليوس، وكايوس كيريو لاتهام كوينتوس ميتيلوس(145). فقد تلقّى هؤلاء الشباب تعليما مميّزا وقادهم الطموح إلى حمل دعاوى بهذا الثّقل على عاتقهم كأوّل خطوة في مسيرتهم القضائية، وهكذا يجعلون لأنفسهم اسمًا بين مواطنيهم بتولّيهم لبعض القضايا الشهيرة، وكان امتيازا أَذِنَ به القدماء للشباب فور دخولهم مُعترك الحياة العامة كوسيلةٍ لنيلِ المجد على عبقريّتهم الفتيّة (146)، وقد عفا الزمن عن هذه العادة منذ أمد بعيد. حتى وإن ظلّ التقليد ساريا فأين أيميليانوس من كل هذا. لن يكون حريّا به أن يقدّم عرضًا عن بلاغته لأنه وقحٌ وأُميّ، ولا لإبداء الشغف بالشهرة لأنه مجرّد ريفيّ همجي، ولا أن يسهلّ في أرذل العمر سيرته المهنية كَمُحامٍ وَأَجلهُ يكاد ينقضي. لا أعزو صنيعه هذا إلا لفرضية واحدة، أنّه

---

(145) العديد من الأمثلة عن اتهامات من هذا القبيل ذُكرت في الملاحظات المدرجة من قبل توماس كوكمان في مؤلفه الكتب الثلاث لشيشرون في De Officiis، منها أن بيبليوس سولبيسيوس قد حاز مجدا عظيما بخَطابته المثيرة في اتّهامه لكايوس نوربانوس والذي كان مواطنا محرّضا ومفتعلا للمشاكل. كذلك ماركوس أنطونيوس الخطيب الذي ذكره أبوليوس وهو جدّ التريومفير ماركوس انطونيوس إذ نال الشهرة باتّهامه لكنايوس بابيريوس كاربو الذي كان سيّد بلاغة شهير. أما إن سلّمنا بما يرويه ماركوس تيليوس شيشرون عن الحادثة فقد أخطأ أبوليوس في ذِكر أنّ كايوس موسيوس الأوغور من اتّهم أولوس ألبيسيوس، في حين أن الأمر كان بعكس ذلك، إذ كانت التهمة آنذاك تتعلّق بالابتزاز.

- Marcus Tullius Cicero, Tully's Three Books of Offices. Translated into English; with notes explaining the method and meaning of the author. Ninth edition corrected and improved. By Thomas Cockman. Oxford: E. Weatherstone, 1819. Book II. XIV. p.163 .

- Œuvres complètes de Cicéron: Brutus; ou, Dialogue des orateurs illustres. L'orateur. Des orateurs parfaits. Dialogue sur les partitions oratoires. Les topiques. Garnier, 1898. p. 45.

(146) يقول ماركوس توليوس شيشرون: "هناك العديد من الموضوعات والمناسبات التي تحتاج إلى البلاغة، وقد برز العديد من الشباب في جمهوريتنا في العديد منها. البعض على سبيل المثال عبر الإلقاء في مجلس الشيوخ، والبعض الآخر من خلال الترافع في محاكم العدل. من بين هذه الطرق، فإن هذا الأخير أكثر ما يدفع للإعجاب، خصوصا وأنه يتضمّن الدفاع والاتهام. والدفاع جدير بالثناء أكثر من الاتهام، أين جلب هذا الأخير للرجال سمعة كبيرة في كثير من الأحيان".

- Marcus Tullius Cicero, Tully's Three Books of Offices. Translated into English; with notes explaining the method and meaning of the author. Ninth edition corrected and improved. By Thomas Cockman. Oxford: E. Weatherstone, 1819. Book II. XIV. pp. 162-163.

ربما يقدّم عرضًا عن جلد الذات وأقام هذه الدعوى تقويما لسلوكه بعدما ضاق ذِرعًا بسيّئات أعماله. لكني بالكاد سأقبل فرضيّة كهذه حتى في حالة شخصٍ أعظم كأيميليانوس، ولا أقصد صاحبنا الأفريقي هنا بل فاتح إفريقيا ونومانتيا والذي شَغل أيضا مكتب الرقيب في روما[147]. كما أني لا أظنّ هذا البليد قادرا على مَقتِ أفعاله وهو لا يُدرك حتى فُحشها.

67- أيُّ دافعٍ آخر تملَّكهُ؟ وقد بات واضحا للجميع أنّ لا وازع غير الحسد ساقهُ هو ومحرّضهُ هيرينيوس روفينوس - والذي سأقول المزيد عنه لاحقًا - وبقيّة أعدائي لتلفيق هذه الاتّهامات الكاذبة عن السحر.

حسنًا. هناك خمس نقاط لأناقشها. ما لم تخُنّي ذاكرتي فقد أتت اتّهاماتهم بخصوص بودونتيلا على النحو التالي: بادئ ذي بدء قالوا إنها أغلقت باب الزواج بعد وفاة زوجها الأول لكني أخضعتها بتعاويذي. ثانيا رسائلها والتي يعتبرونها اعترافًا صريحا على استخدامي للسحر. أمّا ثالثًا ورابعًا، يعترضون على فكرة زواجها عن حُبٍّ في سِنّ الستّين المتقدّمة وعلى خَتمِ عقد الزواج بالريف لا في المدينة. ثم تأتي في النهاية أكثر الاتهامات حِقدًا والتي تتعلّق بالمهر تحديدًا، إذ وضعوا كل طاقتهم وسمومهم في هذا الاتهام. كيف لا والنُّغصة لا تزال تَحفِرُ في قلوبهم طالما يؤكّدون أني في غُرّة حياتنا الزوجيّة، أجبرتُ زوجتي الولهى في العزلة المطلقة لبيتها الريفي على تحويل مهرٍ كبير إليّ. سأكشف زيف هذه المزاعم التي لا تمتّ للحقيقة بِصِلةٍ ولا قيمة لها ولا أساس لها على الإطلاق، وسأدحضُها بمنتهى السّهولة وبما لا جدال فيه لدرجة أني أخشى وبكلّ صدقٍ يا ماكسيموس وأنتم يا حضرة مستشاريه أنكم ستخالونني رشوتُ متهميّ لتوجيه هذه الاتّهامات كي أجد فرصةً أمام الجميع لتبديد ضغينةٍ رُحتُ ضحيّتها. حتى إني سأترجّاكم أن تُسلِّموا بِصِدق ما أقول، وستفهمون قصدي حين تتجلّى الحقائق أمامكم، بل

[147] أيميليانوس الإفريقي هو نفسه بيبليوس كونيليوس سكيبيو أيميليانوس أفريكانوس الأصغر والمذكور في التعليق '64'. أشار أبوليوس هنا إلى فوزه على القرطاجيين في الحرب البونيقية الثالثة سنة 146ق.م وانتصاره في حرب نومانتيا سنة 133 ق.م.

سأبذل ما في وسعي لأمنعكم من التفكير في أنّ اتهاما سخيفا كهذا هو من وحي دهائي لا من كيد أعدائي.

68- سأقوم الآن بِتتبُّعِ الأحداث بإيجاز وأجبر أيميليانوس نفسه فور سماعه للحقائق على الإقرار بأنّه سار عسفًا بِجَسده وانحرف بشدّةٍ عن جادّة الصواب. في غضون ذلك أسألكم، كما فعلتم حتى الآن بل وأكثر إن استطعتم، أن تولوني أكبر قَدرٍ من الاهتمام وأنا أتعقّب القضيّة بأكملها إلى منبعها ومصدرها.

أيميليا بودونتيلا زوجتي الآن، كانت فيما مضى زوجة أحدٍ يدعى سيكينيوس أميكوس والذي أنجبت منه ولدين بونتيانوس وبودنس، تُرِكَ هذان الصبيان بوفاة والدهما تحت وصاية جدّهما الأبوي - لأنّ وفاة أميكوس سبقت أباه - وربَّتهما والدتهما بفائق المودّة والتفاني لقرابة أربعة عشر عاما. وما ارتضت لنفسها وهي في ريعان العمر أن تظلّ أرملة كل تلك السنوات، فقد كان جدّ الصبيين حريصا وبشدّة على تزويجها غصبا عنها بابنه سيكينيوس كلاروس قاطعًا الطريق على كلّ الخطّاب، وتوعّدها فوق ذلك بِحرمان أبنائها من أيّ قَدرٍ من تركة أبيهم إن تزوّجت آخر خارج الأسرة. فلمّا أدركت ألا شيء بِوِسعه أن يُثنيه عن شرطه، ارتأت بِحنوّ أمومتها أن تختم عقد الزواج بسيكينيوس كلاروس امتثالا لأمر حميها، وحالت بتدبيرها دون الإضْرار بمصالح أبنائها بسببها، ودون إتمام الزواج عبر عديد المراوغات حتى توفّي جدّ الأولاد تاركا إيّاهم ورثة له، وهكذا أصبح الابن الأكبر بونتيانوس كفيل أخيه.

69- ما عاد هاجسٌ يشغلها مُذّاك الأوان، ولا داعٍ للبقاء أرملة على الزواج من أحد الأعيان، ومع أنها تحمّلت غُصّة وِحدتها بنفسها ما عاد جسدها يسندها في أمرها. بعد أن أمضت هذه السيّدة العفيفة والقدّيسة سنوات عديدة من الترمّل مجبورة دون فضيحة مذكورة بِفراقها أحضان الحليل، أخذت منها الآلام كلّ مأخذٍ إلى أن شارفت على الموت. وقد نسبَ الأطبّاء والنساء الحكيمات أصل المرض لطول ترمّلها، وتوقّعوا ازدياد السوء بمرور الأيام وتفاقم السّقم بإيلام، واتّفقوا على أن تتزوّج لعلاج نفسها قبل أن يفارقها شبابها. رحّب الكثيرون بهذه التوصية وعلى رأسهم أيميليانوس الذي لم

يتردّد منذ برهة في الكذب بأنّ بودونتيلا لم تفكّر مُطلقًا في الزواج إلى أن أخضعتُها بممارستي للسحر الأسود، وأنه وجدني أنا وحدي الذي خرقتُ ترمُّلها كالعفّة بالتعاويذ وأشربة المحبّة كما لو كان غشاءً للبكارة. كثيرا ما سمعتُ هذا الكلام الذي قيل عن صِدقٍ بأنّ على الكذّاب أن يكون ذا ذاكرةٍ جيّدةٍ. ألا تذكر يا أيميليانوس أنك قبل مجيئي إلى أويا، كتبتَ مقترحا على ابنها بونتيانوس الذي بلغ آنذاك أَشُدّه وكان يتابع في روما دراساته بأنّ عليها أن تتزوّج؟ ناولني الرسالة، أو بالأحرى أعطها لأيميليانوس ودَعهُ يدحض نفسه بصوتهِ وكلماتهِ.

أهذه رسالتك؟ لِم انقلبتَ شاحبا؟ ولا تحمرّ خجلا. أهذه شارتك؟ اقرأ بصوت أعلى بقليل من فضلك حتى يدرك الجميع كم تُناقض كلماته المكتوبة خطابه وكم هو على خلاف مع نفسه أكثر مما هو معي.

70- أكتبتَ يا أيميليانوس ما قُرئ للتوّ على لسانك؟ 'أنا أعلم بأنها راغبةٌ في الزواج وأنّ عليها أن تفعل ذلك، لكني أجهل من ستختار'. أصبت. لم تكن تدري من هو. فبودونتيلا التي تعرف طبيعتك التطفليّة حقّ المعرفة أخبرتْكَ عن رغبتها في الزواج مجدّدا وما حدّثتك عن مرغوبها يوما. كنتَ لا تزال آنذاك تتوقّع منها أن تتزوّج كلاروس أخاك، وقد حفّزك وَهْمُ آمالك أبعد من ذلك بِدفع ابنها على الموافقة. وبطبيعة الحال، إن تزوّجتْ كلاروس وهو عجوز فظ ومتهالك، لجزمتَ أنها لطالما كانت ترغب في الزواج منه بمحض إرادتها دون تدَخّل أيّ سحر. أمّا الآن، بما أنها تزوّجت شابًا له من الأناقة ما تنسبُها أنتَ إليه، تدّعي أنها لطالما رفضت الزواج ولا بدّ أنها قامت بذلك تحت الإكراه! لم تكن تعلمُ أيها الوغد أنّ الرسالة التي قُمتَ بكتابتها في هذا الشأن قد تم حِفظُها، لم تكن تعلم أنك ستدين نفسك بشهادتك. والواقع أنّ بودونتيلا لِعلمِها بِتقلّبك وعدم موثوقيّتك دون الحديث عن وقاحتك وكذبك ارتأت بدلاً من إرسال الرسالة الاحتفاظ بها كدليلٍ واضحٍ على نواياك، وكتبتْ رسالة خاصة بها حول نفس الموضوع لابنها بونتيانوس في روما، أين قدّمتْ فيها كل الأسباب عن عزمها. أحاطتهُ علما بحالتها الصحيّة وألا سبب يدعوها بعد الآن للبقاء أرملة، وأنها بقيت على هذا الحال مطوّلا وضحّت بصحّتها فقط حتى تضمن

حصوله على ميراثه من ثروة جدّه، والتي نمّتها أكثر بعنايتها الفائقة بها إلى أن بات بونتيانوس بنعمة من الآلهة جاهزا للزواج وأخوه لارتداء ثوب الرجولة. وترجّتهم أن يضعوا حدّا لألمها ويخفّفوا عنها وحشة وحدتها وسقم جسدها وألا تتملّكهم أيّ مخاوف بشأن خيارها النهائي أو عاطفة أمومتها، وبأنها ستظلّ معهما زوجة كانت أم أرملة. سأطلب قراءة نسخة من هذه الرسالة الموجّهة لابنها بصوت عال. (تمت قراءة الرسالة)

71- أظنّ الرسالة تكشف بالقدر الكافي أني لم أكن بحاجة لعزائمي لِصَرفِ بودونتيلا عن ترمّلها قسرا، بل كانت لفترة من الزمن معارضة للزواج بأيّ شكل من الأشكال إلى أن اصطفتني ربما عن الآخرين زوجا. لا أرى ما يسوء في هذا الخيار من امرأة فاضلة حتى يُقدَّم ضدي من باب الاتّهام بدلا من الشرف، وإن كنتُ أشعر بالغرابة من انزعاج أيميليانوس وروفينوس من قرار السيّدة في الوقت الذي تفهّم الراغبون في يدها تفضيلها لشخصي، ومع أنها احتكمت في الأخير لمشورة ابنها أكثر من هواها، وهي حقيقة لا يمكن لأيميليانوس أن ينكرها. فور تلقّي بونتيانوس رسالة أمّه سافر على عجالة من روما إلى هنا خوفا إن أبان الرجل الذي تختاره جشعا فقد تقوم كما يحدث غالبا بنقل ثروتها بالكامل إلى منزل زوجها. وما أضناه هذا الهلع قليلا، فقد كانت كلّ آماله من الثروة مع تلك التي تخصّ شقيقه تقف على والدته، إذ ترك له جدّهُ ثروة متواضعة وامتلكت والدته 4 ملايين سيسترس. يصحّ القول بأنها كانت تدينُ من هذا المبلغ بحصّة كبيرة لأبنائها، لكنهم لم يأمنوا على ذلك بمجرّد الاتّكال على كلمتها. فكان يُعبِّرُ عن مخاوفه بِصمتٍ ولا يخاطر بإبداء أيّ معارضة صريحةٍ كي لا يبدو وكأنه لا يثق بها.

72- آل الوضع إلى هذه الحال بسبب رغبة الأم في الزواج ومخاوف الابن، وجيء بي إلى أويا بمشيئة الصدفة أو القدر وأنا في طريقي إلى الإسكندرية. وما كنتُ إلا لأقول: ' ليت الإله ما قَدَّر ذلك' لو لم يمنعني من قولها احترامي لزوجتي. حدث ذلك في الشِّتوة وكنتُ مغلوبا بإجهادات الرحلة، ما ألزمني الفراش لأيام عدّة في منزل أصدقائي الأبيوس والذين أكنّ لهم كل المحبّة والمودّة. هناك أتى بونتيانوس لرؤيتي وما كان حديث العهد بمعرفتي، فقد قدّمه لي بعض الأصدقاء المشتركين في أثينا وأقمنا آنذاك معا وتعارفنا مُذّاك بشكل

وثيق. رحّب بي بمنتهى اللطف واستفسر بقلقٍ عن صِحّتي وتطرّق بمهارةٍ لموضوع الحب، لأنه وجد في ظنّه زوجًا مثاليًا لأمه يمكن أن يستأمنهُ على ثروة المنزل بالكامل دون أدنى خطرٍ. في البداية استطلع رأيي حول الموضوع بِلُغة مبهمة نوعا ما، وحين لمس لديّ الرغبة في استئناف رحلتي والزهد عن الزواج، ترجّاني أن أمكث قليلا في أويا بدعوى رغبته في السفر برفقتي. وبما أنّ اعتلال جسدي حال دون أن أحقّق ذلك في الشتاء الحالي، ألحّ على أنه سيكون من الجيّد أن ننتظر حتى التالي بسبب وعورة صحراء سرت وخطورة الوحوش البريّة. دفعتْ مناشدته المُلحّة أصدقائي الأبيوس إلى السماح لي بمغادرتهم وأحلّ ضيفا لديه في منزل والدته، مؤكدا بأني سأجدُ المكان صحيا أكثر وأهيمُ من هناك بحرّية أكبر في منظر البحر وكان أمرا يطيب لي رؤيته.

73- ما انفكّ يبذل قصارى جهده حتى رآني ببيته، واستوصى بي خيرا والدته وشقيقه - ذلك الصبي هناك. فمددتُ لهم يد العون في دراساتنا المشتركة وانبثقت ما بيننا ألفة ملحوظة. في غضون ذلك استرددت عافيتي، وألقيتُ مقامةً على الملأ نزولا عند طلب أصدقائي، وقد حدث ذلك بالبازيليكا التي غصّت بالناس. قوبلتُ بفيضٍ من عبارات المباركة وهلّل الجمهور باسمي كرجلٍ واحدٍ والتمسوا مني أن أبقى وأصبح مواطنا في أويا. وما أن تشتّت الجمهور دنا مني بونتيانوس، واستهلّ الموضوع بالقول أنّ حَمِيّةً كتلك لم تكن إلا إشارة من السماء. وهنا أفضى لي بمراده بأنّه لا ينتظر إلا إشارتي حتى يُقيم وِصَالا بيني وبين أمّه التي كان كثيرون يطلبون يدها، وأضاف أني الصديق الوحيد الذي يراه محلّ ثقة وائتمان. إن كان عليّ الإحجام عن التزام كهذا - فما عُرِضت عليّ وريثة حسناء بل امرأةٌ مقبولة الجمال وأمّ أولاد - إن انسقتُ خلف هذه الاعتبارات وأصررتُ على ادّخار نفسي لزوجةٍ أكثر إغراء وثراء فلن يكون سلوكي إذّاك جديراً بالصِدّيق والفيلسوف. سيطول بي الأمر - ولو كنت على استعداد - لأخبركَ بما أجبتُ وكم استغرق الأمر وتكرّر أن تحدّثنا في الموضوع، وكم من مرّة ناشدني إذ ما توقّف حتى حاز في الأخير رضواني. لقد حظيتُ بفرصة وافرة لأبصر في أخلاق بودونتيلا لأني أمضيتُ حولا كاملا في مجالستها ولمستُ ثراءها من طيب الخصال، ومع أنّ توقي للسفر رغّبني عن الزواج كونه

عائقا، ما أدركتُ نفسي إلا مُنجرفًا في حُبِّها وكأني أنا من خطبتُ وُدّها. أقنع بونتيانوس والدته أيضًا بمنحي الأفضليّة عن كل الخطّاب وأظهرَ عظيم الحماس في أن يقام الزواج في أقرب تاريخ ممكن، وبالكاد أقنعناه بتأخير الزواج مدّة وجيزة ريثما يتّخذ لنفسه زوجة ويرتدي أخوه في المناسبة ثوب الرجولة، وعلى حففِ ذلك نتزوج نحن.

74- ليتني تحفّظتُ على ذِكرِ ما سأقوله الآن وإن أحدثَ ذلك ضررًا جسيمًا بقضيّتي، كي لا أبدو وكأنني أعيبُ على بونتيانوس تقلّبهُ بعدما سامحتهُ من قلبي حين طلب الصّفح عنه، لكن متهميّ ما تركوا لي مناصًا دون سرد الملابسات وأنا أُقرّ بما حَدثَ مع بونتيانوس آسِفًا. إذ بعدما اتّخذ زوجةً نكثَ عهدهُ وغيَّرَ على حين غرّة رأيهُ وسعى لإجهاض هذا المشروع بعنادٍ لا يقلُّ عمّا أبداهُ من حماسةٍ في إرسائه، وكان على استعدادٍ لتقديم أيّ تضحيةٍ وبذلِ أيّ جُهدٍ حتى يحول دون إتمام زواجنا. وإن كان يجب ألا يُحملَ على عاتقه هذا التقلُّب المشين في السلوك وهذا النزاع المفتعل مع أمّه بل على حميه هيرينيوس روفينوس الذي تراه أمامك، وهو شخصٌ ما دبَّ أحدٌ في الأرض أكثر منه دناءة وخبثا وقذارة. سأكشفُ بإيجازٍ - طالما لا أستطيع تفادي ذلك - هذا الشخص على حقيقته مُستخدمًا قدر ما استطعتُ من ضبط النفس، حتى لا أمُرّ عليه بِصمتٍ ويضيعَ عبثًا ما أبداهُ من مقدرةٍ في هندسة هذا الاتّهام ضدي.

هذا الذي سمّم الغلام الغرّ ضدي وهو الراعي الأصلي لهذا الاتهام، هذا هو أجيرُ المحامين وراشي الشهود، هذا هو الأتون الذي سُبك فيه كل هذا الافتراء، هذا هو المشعل الذي قاد والسّوط الذي ساق أيميليانوس إلى مُهمّته. بل وتباهى أمام الجميع دون تحفّظٍ بأنه بمكيدته نُصِّبت ضدي لائحة الاتّهام. ولديه كلّ الحقّ في تهنئة نفسه فهو المنظّم لكل الدعاوي ومُختلق كل الأباطيل، المصمّم لكل الأكاذيب وبؤرة كل الشرور، الوكر النجس والمأوى الدنس بالفجور والمجون، فقد عُرِف منذ سنواته الأولى بكل عيب وعار: إذ كان في صباه، قبل أن يُقبّحه الصلع بهذا الشكل، عبدا منغمسا في أكثر الرذائل مقتا. وفي مستهلّ الشباب راقصا مسرحيا خائرا ومرتخيا تماما في كامل وعيه. لكن وردني أنه كان

أخرقا دون موهبة في تشبُّهِ بالنِّسوة، إذ يُقال إنه ما امتلك من صفات الممثّل سوى الصفاقة.

75- حتى وهو أكبر سِنًّا الآن - لعنة الآلهة عليه - وأنا ألتمس عفوكم مسبقا عن حماوة ألفاظي، إلا أنّ بيته مرتعٌ للفسّاق ومنزله بأكمله متعفّن بالفجور، وهو نفسهُ قوّاد أسرته إذ إنّ زوجته بنت هوى ولا يختلف عنهما حتى أبناؤهما. باب بيته مقصوف ليلا ونهارا بركلات المتودّدين الفجّار، نوافذه صاخبة بنشيج الألحان الرخوة، غرفة طعامه جامحة بالعربدة، حجرات نومه وكر للزناة فلا يخشى دخولها إلا ذاك الذي لا يملك للزوج حُلْوانا. هكذا يسترزق الحقير من خِزيِه، وما عساهُ يفعل من دون ذلك وقد بدّدَ ثروة طائلة انقلبت إليه على نحو غير متوقّع بعدما قام والده بعمليّة احتياليّة؟ فقد اقترض الأخير المال من بعض الدائنين وآثر الاحتفاظ به على حساب شرفه، ووجدَ نفسه مُحاصرا بالفواتير ومطالب مُقرضيه بتسديد دينه. كلّما لاقاه أحدهم أمسك به وهو يصيح كالمجنون 'إليك عني! لا أستطيع توفير الأموال'. فما كان له إلا أن يستجيب للتّسوية التي عقدها مع دائنيه والتي تخلّى بموجبها عن حلقاته الذهبية[148] وكلّ شارات مكانته في المجتمع. لكنه حوّل بعمليّة نَصبٍ بارعة الجزء الأكبر من ممتلكاته إلى زوجته، وهكذا، وعلى الرغم من أنّه كان هو نفسه أحوجَ وأجردَ ومكفولا بموجب خزيه، تمكّن من هجر روفينوس هذا - أنا أقول لك الحقيقة لا غيرها - بما لا يقل عن 3 ملايين

---

[148] حلقاته الذهبية. يفتح أبوليوس هنا العديد من الفرضيّات المرجحة حول وصفه هذا، يفترض أنه يصف تجمّعات الأشخاص ذوي الشأن ممن يحملون خواتم ذهبية، لأنه ابتداء من القرن الأول من سنة 22 م، منع مرسوم من مجلس الشيوخ Lex Vesellia de libertinis ارتداء خواتم ذهبية للجنود الذين لا يحوزون على رتبة الفرسان Equites، وبالنسبة للمواطنين الرومان فقد أمر الإمبراطور تايبيريوس في نفس السنة بمنح هذا الشرف للمواطنين الأحرار Ingenuitas دون الأشخاص المُعتقين أو العبيد، ممن يملك آباؤهم وأجدادهم ملكيّة تفوق 4,000,00 سيسترس، وهو ما ينطبق على حالة روفينوس الذي أهدر ما لا يقل عن 3,000,000 سيسترس ورثها عن والده وفقا لتأكيد أبوليوس.

- Plin, Nat. 33. 8; 30 ; 32.

- William Smith, Dictionary of Greek and Roman Antiquities. Walton and Maberly; John Murray, 1848. p. 96.

- Kelly Olson, Masculinity and Dress in Roman Antiquity. Taylor & Francis, 8 mai 2017. pp. 65-67.

سيسترس لتُبدّد في حياة العربدة. كان هذا هو المبلغ الذي آل إليه صافيا دون دَيْنٍ من تركة والدته فضلا عمّا أمدّته به زوجته من مهورها اليومية. ومع ذلك فقد انقضّ الشّرِهُ على هذه الأموال مغمض العين وبدّدها بنهمه الواسع في بضع سنين حتى تعتقد حقًا أنه يخاف من الظهور بأيّ شكلٍ من الأشكال على أنه الرابح من خيانة والده للأمانة. وقد جسّد لنا هذا الوفيّ لِخُطى والده أنّ ما اكتُسب بِطُرقٍ منحرفةٍ يُصرَف بِطُرقٍ منحرفةٍ، ولم يبق له شيء من ثروته الوارفة غير همّته الزائفة ونفسه اللّهيفة.

76- حتى زوجتهُ التي أعياها الكِبَرُ وشُغلُ السنين ما عادت تُطيقُ إعالة كلّ المنزل بِخزيها، وما أجداها حتى عرضُ البنت بتحريضٍ منها على كل الشُبّان الأثرياء، والتي ما قُدِّر لها إلا أن تظلّ على الأرجح أرملةً في بيتها قبل الزواج، لو ما صادفت ضحيّة سهلة مثل بونتيانوس. وقد أعطاها بونتيانوس الحقّ في أن تُلقّبَ بالعروس زيفا وباطلا، رغم كل ما فعلناه لثنيه عن ذلك، وعِلمهِ المُسبقِ بأنه قبيل زواجه بها هَجرها بعدما دنّسها شابٌ محترمٌ كانت خطيبته في ما مضى.

وهكذا سِيقت إليه عروسهُ الجديدة لا كغيرها من العرائس، بثوب الجرأة لا الحشمة، مسلوبة الشرف ومعدومة الحياء، مسخرةً في ثوب الزفاف، تسوق بِنبذها من حبيبها السابق اسم الفتاة لا بكارتها، يسوقها في محفّة ثمانية أقنان. وقد شاهدتم أنتم الذي حضرتُم كيف رمقت الشباب بأعينها الشهوانيّة وكيف تباهت بمفاتنها بكلّ جرأة. ومن لم يتعرّف على تلميذة أمها فور رؤيته لشفاهها المصبوغة وخدودها المحمرّة وعيونها المغرية؟ حتى مهرها اقتُرض كل جزء منه عشيّة زفافها وكان بالفعل أكبر ممّا يمكن توقّعهُ من بيتٍ ذهبَ مالهُ وكثُر ولدهُ.

77- وبقدر ما كان روفينوس محدود الموارد لا المطامع، وبقدر الجشع الذي لا شيء يُباريه، لالتهم ملايين بودونتيلا الأربعة في العبث وما كانت لتكفيه. لذا قرّر تحييدي كي لا أُعيقه في سعيهِ لخداع بونتيانوس الضعيف وبودونتيلا الوحيدة. فابتدأ يلوم صهره على خِطبة والدته لي، ونَصحهُ بالتراجع في الحال عن هذا المسار الخطير، طالما يسعُه الحفاظ على ثروة أمّه بنفسه بدلاً من نَقلِها بِيَده إلى حِفظِ شخصٍ غريبٍ، وتوعّد

الشيخ المكّار الشاب المدلّه باستعادة ابنته في حالة رفضه. بإيجاز، التفّ حول الشاب المأفون الذي كان فضلا عن ذلك عبدا لمفاتن عروسته الجديدة كي يصوغه على إرادته ويدفعه من غايته.

أقبل بونتيانوس على أمّه وأخبرها بما قاله روفينوس له، لكنه لم يترك أثرا على شخصيّتها الحازمة بل وبّخته فوق ذلك لتقلّبه وعدم ثباته. ولم تكن أخبارا سارّة تلك التي عاد بها لحميه، فقد أبدت والدته حزما راسخا غير متوقّع من امرأة هادئة الطباع، وما دفع الأمور إلى الأسوأ اعتراضاته التي أغضبتها وهو ما زاد على الأرجح في عنادها بشكل أكبر. وأجابت في الختام أنه لم يكن يخفى عليها أنّ اعتراضاته كانت بتحريضٍ من روفينوس، ما جعلها ترى في وجود زوجٍ في صفّها أكثر من ضرورة لها ضد جشعه المستميت.

78- لمّا سمع الخسيس هذه الأقوال اكتوى بالغيظ واستشاط غضبا، ومن شدّة احتقانه فاه بمقذعات - اعتاد ربما على قولها لزوجته - على أطهر النساء وأكثرهم عفّة بمحضر ابنها، ودعاها على نحو صارخٍ بالعابثة وأنا بالساحر والمُسمِّمِ على مسمع من عديد الشهود الذين سأسمّيهم إن شئت، ومتوعّدا إياي بالموت على يديه.

بالكاد أستطيع أن أكبحَ غضبي، هذا السخط العارم الذي يسدّ روحي. أنك أنتَ يا أكثر الرجال تخنّثا من تتوعّد شخصا بالموت على يدك! يدك! أية يد! يد فيلوميلا[149] أو ميديا[150] أم كليتمنسترا[151]؟ أبذلك الجبن المهين الذي تُبديه لدى رؤيتك للسلاح وأنتَ تمثّل أدوارهنّ دون أن تحمل خنجرا؟

---

[149] فيلوميلا. شخصية مسرحية في تراجيدية 'تيريوس' من الشاعر الإغريقي العظيم سوفوكليس. تتناول مأساة فيلوميلا الذي قام تيريوس ملك ثراسيا وزوج أختها 'بروكن' باغتصابها وقطع لسانها حتى لا تفشي بهذا السر، لكن فيلوميلا استخدمت قطعة من القماش مطرزة حتى تخبر أختها بما حدث، حين علمت الأخيرة بالأمر قامت بالانتقام بقتل ابنها 'إيتيس' وأرسلته إلى والده الملك على طاولة الطعام. وحين اكتشف الملك الأمر، قام بملاحقة زوجته وأختها وقتلهما بفأس، وعلى الفور، تحوّل الثلاثة إلى طيورٍ أين مُسخ تيريوس إلى هدهد، وفيلوميلا إلى سنونو، وبروكن إلى عندليب.

-Paul Allen Miller, Latin Erotic Elegy: An Anthology and Reader. Routledge, 15 avr. 2013. p. 299.

[150] ميديا. شخصية مسرحية رئيسية في تراجيدية 'ميديا' من الشاعر الإغريقي العظيم يوربيديس، أين ترتكز المسرحية على رغبة زوجة في الانتقام من زوجها غير المخلص، أين تبدأ المسرحية بمشهد ميديا الغاضبة من قرار زوجها 'جايسون' الزواج من 'غلاوس' إبنة ملك كورينث 'كيريون'، أين يقوم زوجها بشرح أسباب هذا القرار بأنه لن يفوّت فرصة الزواج من عائلة ملكية لأنها لم تكن سوى امرأة بربرية، وبأنه يأمل في أن يستمرا كعشيقين. حينها، انتقمت ميديا بأكثر الطرق بشاعة بكسب ودّ 'آيجيوس' ملك آثينا الذي كان عقيما، إذ طلبت منه السماح لها بالبقاء في آثينا مقابل إعطائه أدوية لإنهاء عقمه، ووافق الملك غير مدرك بنوايا ميديا، والتي قرّرت قتل غلاوس وكيريون عبر تسميم رداء وتاج ذهبي، وهو إرث عائلي مقدم من إله الشمس هيليوس، وتقديمه إلى جايسون كهدية لزواجه من غلاوس. بعد التظاهر بالندم على ما أبدته من ردة فعل، وترجّيها له بأن يقدّم الهدية إلى غلاوس على أمل أن تدفع أباها للسماح بعودتها من منفاها، وافق جايسون وسمح بذلك، وفور ارتداء الرداء سقطت غلاوس على الأرض، وحين حاول الملك كيريون إمساكها تسمّم هو بدوره من جراء ملامسته للتاج والرداء. لم تكتف بذلك ميديا، بل قررت قتل أولادها من جايسون انتقاما منه على تخلّيه على عائلته، هذا الأخير عندما اتّجه إليها بسبب قتلها لزوجته، وجدها قد قتلت أولاده أيضا.

- Translations from Euripides [Medea, Iphigeneia in Aulis and Iphigeneia in Tauris]: by J. Cartwright. 1868. pp. 19-73.

[151] كليتمنسترا. شخصية مسرحية رئيسية في تراجيدية 'أجاممنون' من الشاعر الإغريقي العظيم إسخيلوس. أين تبدأ المسرحية في بلاد الإغريق بوصف عودة الملك أجاممنون من انتصاره في حرب طروادة رفقة زوجته كليتمنسترا. إبان ذلك، تصدُر تنبؤات قاتمة بمقتل الملك على يد زوجته التي كانت غاضبة من تضحيته بابنتهما 'إيفيجينيا' حتى تعيد الآلهة الرياح وتسمح للأسطول اليوناني بالإبحار إلى طروادة. كما أنها كانت غير راضية عن إبقائه لنبِيّة طروادة 'كاساندرا' كخليلة له. أصدرت كاساندرا نبوءة بمقتلها رفقة أجاممنون لسكان المدينة الذين أصيبوا بالرعب، ثم دخلت القصر وهي تعلم أنها لا تستطيع تجنّب مصيرها. تتضمّن نهاية المسرحية توقعًا لعودة أوريستيس ابن أجاممنون، أين يسعى للانتقام من والده.

- Freeman & Charles, The Greek Achievement: The Foundation of the Western World. New York 1947. p. 244.

حتى لا أستطرد أكثر. لما رأت بودونتيلا في ذهول أنّ ابنها تداعى إلى أبعد مما اعتقدتهُ ممكنا، ذهبت إلى الريف، وكتبت له قصد تأنيبه تلك الرسالة التي شنعتُ بها، تُقرّ فيها حسب متهمِيّ بأنّ عزائمي أفقدتها صوابها وأوقعتها في حبي. لكني أخذتُ عنها نسخةً من يومين بأمرٍ منك يا ماكسيموس وبحضور شهودٍ وكاتب بونتيانوس وكان هناك أيضا أيميليانوس الذي كان حاضرا وصادق عليها، وكان كلّ ما جاء فيها يصبُّ في صالحي تماما ويناقض كلّ تأكيدات المتّهِمين.

79- ومع ذلك، حتى وإن دعتني صراحةً بالساحر، فمعقولٌ أنها، تبريرا لسلوكها تجاه ابنها، آثرت التذرّع بقوة تأثيري بدلا من إرادتها المحضة. وهل فايدرا[152] المرأة الوحيدة التي دفعها الحب لكتابة رسالة كاذبة؟ أليس شائعا بين النساء أن يعزو أمرهن للإكراه حين تحدوهن رغبة جارفة في مثل هذه الأمور؟ بل حتى ولو كانت تعتبرني ساحرا بحقّ، أسأكون ساحرا لأنّ بودونتيلا كتبت ذلك؟ أنتم بكل أدلّتكم وشهودكم وبلاغتكم المتطايرة فشلتم في تجريمي بالسحر، فهل لها أن تفعل ذلك بمجرّد كلمة؟ والمعلوم أنّ الذي يُكتَبُ ويُوثَّقُ أمام القاضي في الجلسة لأهمُّ بكثيرٍ ممّا يُكتَبُ في رسالة خاصة! لِم لا تثبتُ عليّ تهمة السحر من أفعالي بدلاً من اللجوء إلى أقوال غيري؟ لو اتُّبِع مبدؤك بأن يتمّ اتّخاذ ما يكتبهُ أيُّ شخص في رسالةٍ تحت تأثير الحب أو الكراهية كبيّنة، فسيتمّ اتّهام الكثيرين بأفظع التهم. 'لقد دعتك بودونتيلا بالساحر في رسالتها، إذن أنت ساحر'، إن دعتني بالقنصل، أأعدّ إذن قنصلا؟ ماذا لو دعتني رساما أو طبيبا أو حتى رجلا بريئا؟ أتقبلُ أيًا من هذه الأقوال لمجرّد أن أدلت بها؟ لن تقبل أيا منها. ومع ذلك، إنه لجورٌ كبير

[152] وفقا لما ذكره أوفيد في ميتامورفوزس، أنّ ثيسيوس ملك أثينا الأسطوري، بعدما هجر أريادن ابنة مينوس ملك كريت في جزيرة ناكسوس، أخذ أختها فايدرا لأثينا حتى يتزوّجها، لكنها وقعت في حب هيبوليتوس ابنه. وعندما تم أسر ثيسيوس في إيبيروس، انتهزت الفرصة للكشف لابنه عن شغفها به، لكنه صدّها مرارا وتكرارا. وبعدما قام هيركيوليس بتحرير ثيسيوس، خشيت فايدرا أن يعلم بما حصل، وقامت بشنق نفسها تاركة رسالة، مخبرة إيّاه أن ابنه نال من شرفها، حينئذ ناشد ثيسيوس دعم نبتون، الذي أرسل وحشا بحريا في الوقت الذي كان فيه هيبوليتوس يسوق عربة مجرورة بخيول على شاطئ البحر، أين ارتعبت الخيول وألقته من العربة ليرتدّ قتيلا.

- The Metamorphoses of Ovid, Literally Translated into English Prose with Copious Notes and Explanations: By Henry T. Riley, B.A. H.G. Bohn, York Street, Covent Garden. London 1858. p. 542.

أن تصدّق من شخصٍ سيء أقواله دون حَسِنها، وأن تستبيح الرسالة في التأثيم دون التبرئة. يعترض متهمي: 'لكنها فقدت صوابها وأحبّتك بانجراف'. لئن سلّمتُ الآن بهذا الأمر، أكلّ مرغوب في الحب ساحر لمجرّد أن صادف وأن قال راغبةُ ذلك في رسالة؟ إن كتبتْ بودونتيلا في رسالة إلى شخص آخر ما يمكنه فعلا أن يؤذيني بشكل جلي، أعتقد أنها كانت بالكاد مغرمة في تلك اللحظة بي.

80- والآن افصِل في أمرك واخبرني هَبِلتك أمّك، أكانت سليمة العقل أم مخبولة لمّا كتبت ذلك؟ أتقول سليمة العقل؟ إذن فهي لم تكُ ضحيّة للسحر. مخبولة؟ فهي لم تكُ في هذه الحالة على درايةٍ بما تكتبهُ ولا ينبغي تصديقها. أبدا. حتى لو افترضنا بأنها كانت مخبولة لم تكُ لِتُدرك الحقيقة. فما أن يقول المرء 'أنا صامت' فهو يخدع نفسه قولا، طالما تخسف كلماته بالصّمت فعلا، وبحديثه أصلا يطعن في جوهر كلامه جملة وتفصيلا. ما بالك بمن يقول 'أنا مخبول'، لا يمكن لذلك أن يكون، لو ما كان المتحدّث على عِلمٍ بما يقول، ومن يعلمُ ما هو الهبل حقّا فهو عاقل حتما، لأنّ الجنون لا يسعهُ أن يُدرك نفسه أكثر مما يمكن للعمى أن يُبصر ذاته. لذلك فقد كانت بودونتيلا تُحكِّمُ عقلها وإن ظنّتهُ طار عنها. بوسعي الحديث أكثر عن هذه النقطة لكن كفانا جدليّة! سأقرأ الرسالة التي تُقدّمُ شهادةً صارخةً عن وقائع أخرى تماما، حتى تبدو وكأنها أُعِدّت عن سابق تدبير ودراية بمجرى هذه المحاكمة الاستثنائية. خُذها واقرأها إلى أن أقاطعك.
(تُقرأ الرسالة)

توقّف للحظة قبل أن تستأنف ما يلي، فقد صِرنا إلى قُحاح الأمر. حتى الآن يا ماكسيموس، وبقدر ما لاحظتُ على أيّة حال، لم تُشِر السيّدة بتاتا إلى السحر بل كرّرت بنفس الترتيب ما جاء على لساني من أقوال منذ قليل: عن ترمّلها الطويل، والعلاج المقترح لسوء صحّتها، وعن رغبتها في الزواج، وعن مناقبي التي عَلِمتها من بونتيانوس، وعن مشورته هو نفسه بأن تتزوّجني بالتفضيل على سواي.

81- هذا فحوى الكلام الذي قُرئ لحدّ الآن، ويبقى من الرسالة جزء، ومع أنه مثل الجزء الأول الذي كُتِب في صالحي إلا أنه ينقلب عليّ أيضًا. ولو أنه يستهدف خصيصا

تهمة السّحر المرفوعة ضدّي، إلا أنّ روفينوس تنكّب عنه بحركة بارعة وحرّف معناه وجرّني للتجريح في أويا من بعض الساكنة باعتباري ساحرا بالبيّنة. لقد سمعتَ الكثير من ألسنة الآخرين يا ماكسيموس وتعلّمت المزيد بالقراءة ولم تُعلِّمك تجربتك القليل، لكنك ستنفي قطعا أن تكون صادفت يوما تدجيلا بهذا الخبث أو هذا التدليس الماكر في الإجرام. أيّ بلاميدس[153]، أيّ سيسيفوس[154]، أيّ أوريباتس[155] أو فرينونداس[156] أتى بخديعة كهذه؟ لئن قارنّا ما فعلهُ هؤلاء الذين ذكرتُهم ومعهم أعتى المخادعين في التاريخ بما فعلهُ روفينوس ببراعته في هذه الخديعة لوحدها لبدوا وحقّ السماء مجرّد مهرّجين وبهلوانيين. يا معجزة الأكاذيب! يا ماكرا يستحقّ السجن وعمود التشهير! من كان يتخيّل أنّ الذي كُتِبَ كدفاعٍ يمكن أن يتحوّل دون المساس بحرفٍ واحدٍ إلى اتّهام! بحقّ الآلهة! هذا لا يُصدّق! لكني سأوضّح لكم أنّ ما يتعذّر تصديقه هو ما حصل بالفعل.

---

[153] يقول أبولودوريس: "عندما علم مينيلوس بأمر الاغتصاب جاء إلى أجاممنون في ميسينا، وترجّاه أن يحشد جيشًا ضد طروادة وأن يرفع الضرائب في اليونان. وقام بإرسال رسول إلى كل الملوك ليذكّرهم بالقسم الذي يجمعهم، وحذّرهم من أن يتطلّعوا إلى أمان زوجته، قائلاً إن الإهانة قد قُدّمت بالتساوي إلى كل بلاد الإغريق. وبينما كان الكثيرون يتوقون للانضمام إلى الحملة، أشار البعض أيضا إلى يوليسيس في إيثاكا، لكنه تظاهر بالجنون بسبب عدم رغبته في الذهاب إلى الحرب. ومع ذلك، أثبت بلاميدس ابن نوبليوس أنّ جنونه زيّف. فلمّا تظاهر يوليسيس بالخرف، تبِعه بلاميدس وانتزع تيليماخوس من حضن بينيلوب، وسحب سيفه كما لو كان سيقتله. ولخوفه على الطفل اعترف يوليسيس بأن جنونه كان مصطنعا، فذهب إلى الحرب".

- Apollodorus, Epitome. E.3. 6; 7.

[154] يقال إنّ سيسيفوس كان المؤسس الأول لكورينث وسيّدا للخداع. كان خصمه اللدود هو أوتوليكوس ابن شيون وهيرميس الذي كان سارقا للماشية وذا قدرة سحرية على تحويل لونها، لكن سيسيفوس بدهائه خادع هذا الأخير بوضع علامة على الحوافر واستطاع إعادتها من زريبة المواشي لأوتوليكوس.

- Elliott M. Simon, The Myth of Sisyphus: Renaissance Theories of Human Perfectibility. Fairleigh Dickinson University Press, 2007. p. 28.

[155] يقول ديودوروس: "أرسل كروسوس ملك الليديين أوريباتس من ايفيسوس إلى بيلوبونيسوس، بعد أن أعطاه المال لتجنيد أكبر عدد ممكن من المرتزقة من بين الإغريق، لكن وكيل كروسوس ذهب إلى كورش الفارسي وكشف له كل شيء. ونتيجة لذلك أصبح غدر أورباتس مثالا بين الإغريق، وحتى يومنا هذا في تقليد الغرب، كلما أراد رجل أن يضرب مثلا على شخص محتال يدعوه بأوريباتس".

- Diodorus Siculus, Library. 9. 32. 1.

[156] فرينونداس. رجل مخادع من أثينا. اعتبره لوقيان السميساطي في مؤلفه 'الرسول الكاذب' من المشاهير الأشرار. شارك في المفاوضات البيلوبينية، اتّسم بالمكر والخبث حتى أصبح اسمه كنية لكل شخص يحمل صفاته.

- Collected Works of Erasmus, Adages: v. [6]. III IV 1- IV ii 100: Translated and Annotated by Denis L. Drysdall; Edited by John N. Grant. University of Toronto Press, 2017. III Vii 22. p. 229.

82- كانت الأمّ تنحى باللائمة على ابنها لأنه بعد أن قام بتقديمي لها كنموذج لكل الفضائل، أضحى بتحريض من روفينوس يؤكّد أني كنتُ ساحرا. وقد أتت الكلمات بهذا النحو حرفيا: 'أبوليوس ساحر، وقد سحرني لأحبّه. لتأتي إليّ إذن، طالما لا أزال في رشدي!'. انتقى روفينوس هذه الكلمات التي اقتبسَتْها باللغة اليونانية وفَصَلها عن سياقها واقتادها يطوف بها حول الجميع كاعترافٍ صريحٍ من جانب بودونتيلا، جارًّا بونتيانوس في جانبه وهو يبكي بِحُرقة، مُبديًا إيّاها في جميع أنحاء السوق ومُتيحا للناس قراءة هذا المقطع الذي ذكرتهُ للتو ومُخفيا ما قبله وما بعده، إذ كان عُذرهُ أن بقيّة الرسالة أكثر فضاعة مما ذَكرهُ، وأنه يكفي أن يعلم الناس باعتراف بودونتيلا بشعوذتي. ما الذي حصل في النهاية؟ اعتقدَ الجميع أن الأمر مرجّح بما فيه الكفاية. هذه الرسالة بالذات والتي كُتبت لِتُنصفني أثارت بين أولئك الذين غابت عنهم الحقائق أشدّ الكراهيّة ضدي. انطلق هذا الوغد الوسخ مُقتحما قلب السوق كالعربيد، مُبقيا على الرسالة مفتوحة ومُناديا: 'أبوليوس ساحر! إنها تصف بنفسها مشاعرها ومعاناتها! ما الذي تطلبونه أكثر؟'. لم يكن هناك أحدٌ ليَنوب عنّي ويجيب: 'أعطني الرسالة كاملة من فضلك! دعني أرى ما فيها بالكامل، دعني أقرأها من أوّلها إلى آخرها'. فرُبّ قولٍ إن أورد بمعزل عن سياقه أفضى بمعناه لتأويل مغرضٍ، وما يَسلمُ كلام من التجريح إن اعتمد في مقطعٍ منه على سَبقٍ تمّ السطو عليه في بدايته، أو إذا حُذفت بعض الجمل عمدا من سياقها في النص، أو إذا قُرِئ ما هو مكتوب بنبرةٍ ساخرةٍ تجعلهُ يبدو كلاما افترائيا. لو طُرحت هذه الشكوى وغيرها من أقوال بأدنى قدر من الأمانة إذاك، لانكشف السياق الحقيقي للرسالة آنذاك.

83- حاول أن تتذكّر الآن يا أيميليانوس ما إن لم تكن هذه هي الكلمات التي أخذتَ أنتَ وأنا وأمام شهودٍ نسخة منها: ' مُذ رغبتُ في الزواج للأسباب التي أطلعتُك عليها، أقنعتني باختيار أبوليوس في أفضليّة على كل الآخرين لفرط إعجابك به وحِرصك على أن تُصبح بسببي أكثر ودّا معه. أمّا الآن بعدما اتّهمنا بعض الحقدة وحاولوا ثنيك عن ذلك،

أضحيتَ على حين غرّة تقول إنّ أبوليوس ساحر، وقد سحرني لأحبّه. لتأتي إليّ إذن، طالما لا أزال في رشدي'!

أنا أسألك يا ماكسيموس، لو كان للحروف صوتٌ وإن كان بعضها الآن يدعى صوتيا، إن أمكن للكلمات - كما يزعم الشعراء - أن تتّخذ أجنحة وتحلّق عاليا، ألا تتوقّع - بعدما انتقى روفينوس مقتطفات مخادعة من تلك الرسالة وقرأ بضع أسطر متعمّدا طمس أيّ شيء يحمل معنى أكثر تفصيلا - أن تبدأ الحروف المتبقّية بالصراخ قائلة إنّها غابت عن الأنظار ظلما، وأن تُقدِم الكلمات التي قمعها روفينوس على الانفلات من يديه وإغراق السوق بأكمله في الشغب، صارخة بأنها قد أُرسلت كذلك من بودونتيلا وأنها ائتُمنت على شيء لتقوله أيضا، وتدعو الناس للاستماع إليها بدلًا من إلقاء السّمع لمحتال كذوب كان يحاول إثبات كذبه بخطاب مُحرَّف؟ أنّ بودونتيلا لم تتّهم أبدا أبوليوس بالسحر، بل تُبرّئه من هذه التهمة التي يرميه بها روفينوس. ومع أنّ كل هذه الأمور لم يُفصح عنها وقتذاك، إلا أنها، حيث هي أجدى بالنسبة لي، تتوهّج اليوم بشكل جلي. ها قد انكشفت ألاعيبك يا روفينوس وافتُضح خداعك وانفضحت أكاذيبك. ألا إنّ الحقيقة تُخلع لوهلة عن عرشها لترتقي مجدّدا ويغرق الافتراء نزولاً إلى الهوّة التي لا قعر لها.

84- لقد أَغَرتُم عليّ برسالة بودونتيلا، وها أنا ذا أقهركم بنفس الرسالة حتى إني لن أحرمكم من سماع الخاتمة إن رَغِبتم. أخبرني بأيّة كلمات اختتمتْ الرسالةَ هذه السيّدة المسكينة والمسحورة، المخبولة والمجنونة والمفتونة؟: 'أنا لم أُسحر ولم أُفتن، هذا قدري'. أبِحاجة أنتم لأكثر من هذا؟ لقد أخزتكم بودونتيلا وبَرّأت صراحةً سلامة عقلها من بهتانكم. أيّا كان الدافع أو الداعي لزواجها فهي تعزوه للقدر الذي لا يشترك مع السحر في أيّ شيء ولا حتى يُشرِكه في أيّ أمر، فما في وِسع العقاقير أو الرّقى أن تفعلهُ، إن صَدُق القول بأن قَدرَ المخلوقات كالسيل الجُحاف لا يمكن كبحهُ أو صرفهُ؟ وعليه فإنّ بودونتيلا ما اكتفت بتبرئتي من تهمة السحر هنا بل أنكرت وجود السحر أصلا. من الجيّد أنّ بونتيانوس كعادته حافظَ بالتّمام على رسالة والدته، ومن الجيّد أيضا أن وتيرة القضيّة ما أتاحت لكم أدنى فرصة لتعديل الرسالة على مقاسكم، وكلّ الفضل يعود

لك ولحصافتك يا ماكسيموس فقد أبصرتَ بين افتراءاتهم منذ البداية وعجّلتَ في القضيّة حتى لا يستجمعوا بَأسَهم ولا أنفاسهم بمرور الأيام وهكذا خرّبت كل مخططاتهم. والآن لنفترض أن الأم بحكم العادة صارحت ابنها في رسالة خاصة عن مشاعرها نحوي، أكان صائبا يا روفينوس ولائقا ولا أتحدّث هنا من باب البرّ بل المروءة أن تُشاع هذه الرسائل وتُذاع فوق كل ذلك وتُشهَر من قبل ابنها؟ أو أني لا أدنو هنا حُمقا عن أحدٍ وأنا أطلبُ منك أن تراعي حُرمة غيرك أنتَ الذي فرّطتَ في حُرمتك.

85- ما لي أشكو فقط ممّا عَبَر، والحاضر أدهى وأمرّ؟ بِئس ما فعلتم وقد أفسدتُم بِشدّة هذا الغلام البائس حتى يقرأ بملءِ فيهِ رسالةً من أمّه وهو يظنّها تتعلّق بغراميّاتها في محكمة الإقليم وعلى مسمع رجل بمنزلة كلوديوس ماكسيموس، ونرى الولد على مرأى تماثيل الإمبراطور بيوس يتّهم والدته بالانجراف وراء عاطفة شائنة والانغماس في القصص الغرامية؟ من ذا الذي يملك رباطة الجأش ولا تغلي من هذا الأمر مراجله؟ أتتطفّلُ على قلب أمك يا رذيل في مسائل من هذا القبيل؟ أترصدُ نظراتها؟ أتَعُدّ تنهّداتها؟ أتسبرُ عواطفها؟ أتعترضُ رسائلها وبالمغرمة تُعايرها؟ أتنتهكُ خصوصيّتها لترصُدَ ما تفعله في مخدعها؟ أتطالبها وهي المستضعفة أمام الحب وَصَولتِهِ بأن تنتفل عن كينونتها؟ أتخلو في ظنّك من أيّ عاطفة عدا الأمومة؟ أسفي عليكِ بودونتيلا! أيُّ بطنٍ هذه! لكان عُقمك أفضل حالا من حَمْلِك! ما شفعت لك تلك الشهور التي تخبّطوا فيها في رَحمِك، ولا أربع عشرة سنة من ترمّلِك! لقد قيل لي إنّ الأفعوان لا يرى النور إلا بقضم رحم أمه ولا يحيا إلا على جُثّتها، لكن ابنك الراشد كما تنظرين لم يرحمكِ بلدغاته حتى وأنت حيّة تُرزقين. ينتهكُ سِترِكِ ويهتكُ عِرضكِ ويطعنكِ في قلبكِ ويعبثُ في داخلكِ. أحالُكَ كحال الابن البار الذي يجزي بعرفانه جميل أُمّه على الحياة التي وهبتهُ وميراثَهُ الذي أكسبتهُ وعمّا كابدتهُ لِوحدها طيلة أربعة عشر سنة افتدتهُ بها؟ أكان عمّك بهذه التعاليم يُريك عاقبة الزواج إن تأكّد لك أنك ستنجبُ أبناء مثلك؟ هناك سطر معروف:

"أكرهُ الغلام الذي، هكذا فَهيمٌ قبل أوانه".

فعلا، ومن لا يمقتُ ويجتوي غلاما اكتسب المكر قبل أوانه، حين يُطلّ عليك كالفأل السيئ، في صغر سنّه يتقاطر إربا، وبطراوة عُمره يشتدّ وربا، وبمكر المشيب في شرخ الصبا؟ كلا بل ما يُستهجَنُ في أمره أكثر أنّ أفعاله المعيبة تمضي دون ضريبة فهو لم يبلغ بعدُ أهليّة العقاب مع أنه بالغ بما يكفي لإحداث الضرر. أقلتُ الضرر؟ كلا! بل منكرا في حقّ أمه لا يُغتفر لقبحه وشناعته!

86- حتى الأثينيون حين استولوا على مراسلات عدوّهم فيليب المقدوني وشرعوا في كشف محتواها على الملأ، حرّموا قراءة حرفٍ واحدٍ بصوت عالٍ من رسالة شخصية وجّهها فيليب لزوجته أوليمبياس احتراما للحقوق الإنسانية الشائعة، وبذلك أعفوا العدو حتى لا يتطفّلوا على خصوصيّة الزوج والزوجة معتبرين القانون السائد بين جميع البشر فوق المطالب الخاصة بالانتقام. هكذا تعامل عدوّ مع عدوّه! ما صنعتَ أنتَ مع المرأة التي أنجبتك؟ أترى محلّك في مقاربتي وأنتَ تقرأُ بصوتٍ عالٍ رسائلَ كُتِبت من والدتك والتي وفقًا لتأكيدك تتعلّق بشؤونها في الحب، مُقدِما على ذلك أمام هذا الجمهور المُحْتَشِد هنا وهو جمعٌ لن تجرؤ أمامه ولو غصبا على إلقاء أبياتٍ من أحد الشعراء الخليعين لأنك ستكون مقيّدا بِرِبقة الحياء. بل ما كان لك أن تلمس بتاتا مكتوب أمك وأنت لا تقرُبُ أبدا هذه الأمور وما شابهها. بل وقدّمتَ بيدك رسالة خاصة بك كُتِبت عن والدتك بأسلوب ولا أشنع وإساءة ولا أفضع في وقتٍ كُنتَ لا تزالُ فيه تترعرع تحت جناحيها، تلك الرسالة التي أرسلتَها سراً إلى بونتيانوس وقدّمتَها الآن كيلا تُدان على ارتكاب خطيئة واحدة ويطوي النسيان ذاك الصنيع الخيّر لك! ألم تُدرك أيها الفدْم أن عمّك سمحَ لك بفعل ذلك حتى يُبرّئ نفسه أمام الرأي العام باستخدام رسالتك كدليل على أنك حتى قبل أن تنتقل إلى منزله، حتى في الوقت الذي تزلّفت فيه على أمّك بكلمات حبٍّ زائفة، كنتَ بالفعل ماكرا كالثُّعلبان ومجرّدا من كل مودّة بنويّة.

87- كما أني لا أخال أيميليانوس هكذا غبيّا ليظنّ أنّ رسالة من مجرّد صبي، والذي هو كذلك أحد متهميّ، يمكنها فعلا أن تروي ما يضرّ بي.

هناك أيضًا تلك الرسالة المزيّفة التي حاولوا من خلالها إقامة الدليل على أني اجتذبتُ بودونتيلا بالتملّق. لم أكتبها أبداً والتلفيق ليس حريّاً بالتصديق أصلا، وما حاجتي بالتلهوق إن وضعتُ ثقتي في السحر؟ وكيف وجدتْ تلك الرسالة طريقها إليهم وقد أُرسلت إلى بودونتيلا كما تقتضيه العادة في مثل هذه الأمور عبر أحد الخدم المُؤْتمنين؟ ولِمَ كتبتُها بمثل هذه الألفاظ السوقيّة وبمثل هذه اللغة العاميّة، أنا الذي سلّمَ متهميّ بأني أُتقن اليونانية بالتّمام والكمال؟ ولِم أسعى لإغرائها بالتزلّف إلى حدّ السّخف والفظاظة؟ هم أنفسهم يُقِرّون بأني أكتبُ في الغرام شِعرا يشدُّ النفس والخاطر. التفسير جليّ للجميع وهو كالآتي: من لم يستطع قراءة رسالة بودونتيلا المكتوبة باليونانية، والتي تجاوزت بِرفعتها قدرته على فهمها، وَجدَ من الأسهل قراءة هذه الرسالة وأوّلها لصالحه لأنه خطّها بنفسه.

سأضيف نقطة أخرى أستوفي بها موضوع الرسائل. بعد أن كتبتْ بودونتيلا بسخرية وتهكّم هذه الكلمات 'لتأتي إليّ إذن، طالما لا أزال في رشدي'، طلبت مجيء أبنائها وَكَنّتِها وعاشت معهم لمدة شهرين تقريبا. فليخبرنا هذا الابن البار ما إن رَصدَ جنون والدته المزعوم سواء في أقوالها أو أفعالها. فليُنكر أنها أظهرت أقصى قدر من الحنكة في فحصها لحسابات المُكارين والرُعيان والسُيّاس، فليُنكر تنبيهها بشدّة على شقيقه بونتيانوس حتى يأخذ أُهبته من دسائس روفينوس، فليُنكر توبيخه بصرامة على إفشاء الرسالة التي بعثتها إليه دون قراءتها بأمانة كما كانت مكتوبة! فليُنكر بعد كل ما ذكرتُ أنّ والدته تزوّجَتني في بيت ريفي مثلما اتُّفق عليه مسبقا!

88- وقد أقررنا بأفضليّة الزواج في ضيعتها التي لا تبعدُ كثيرا عن أويا تلافيا لجمهرةٍ أخرى من المواطنين الطامعين في الإكراميّات، فقبل مدّة غير طويلة وزّعت بودونتيلا 50.000 سيسترس على الأهالي بمناسبة زواج بونتيانوس والتحاف هذا الصبيّ بثوب الرجولة. كُنّا نبتغي أيضًا تجنّب حفلات العشاء المتكرّرة والمرهقة التي تفرضها العادة عموما على المتزوّجين حديثا، وهذا ما دفعنا أساسا يا أيميليانوس لِخَتم زواجنا بضيعةٍ في الضاحية بدلا من البلدة، حتى نتفادى إهدار 50.000 سيسترس أخرى والتملّص من

العشاء في مجلسك أو بمنزلك. ألا تراني محقّا في ذلك؟ لقد أثرت دهشتي باعتراضك الشديد على الضيعة وأنتَ تقضي معظم وقتك في الريف، ناهيك أنّ قانون الزواج اليوليوسي لا يتضمّنُ في أيّ جزء منه بُندا يَحظرُ أيّ شخصٍ من الزواج في ضيعة. أمّا إن رغبتَ في سماع الحقيقة، إنه لفأل خيّر في استباق الذرّية، أن يتزوّج المرء في ضيعةٍ بدلا من البلدة، على أرضٍ خصيبة لا عقيمة، على مرجٍ مُخضرٍ بدلا من رصيف مُحجرٍ، من ستكون أُمّا عليها الزواج في الحضن الأعمق لأمّها، بين المحاصيل القائمة وفي الحقول المثمرة، أو عليها أن تستلقي تحت شجر الدردار الذي يقترن بالكرم في أعمق حضن للأرض الأم، بين فسائل الأعشاب وفروع الكروم الغضّة وجذوع الأشجار الناشئة. يمكنني أن أضيف أن المجاز في السطر معروف جدا في الملاهي:

"فلتُزرع الأرض، ولتنسَل بِخَلفٍ طيّبٍ".

يَعظُّ على هذا الرأي بشدّة قدماء الرومان كذلك مثل كوينتيوس وسيرانوس وآخرون مثلهم، فما عُرضت عليهم الزوجات فحسب بل حتى القنصليات والدكتاتوريات في الحقول المفتوحة. لكني تحدّثتُ في هذا الشأن مطوّلا. سأكبح نفسي حتى لا أرضيك بمديحي لحياة الريف.

89- أمّا عن عُمر بودونتيلا الذي كذبتَ بخصوصه ببالغ الجرأة لتؤكّد أنها تزوجتْ في الستين، سأردّ في بضع كلمات، وما أحتاج سواها لمناقشة مسألةٍ في منتهى الوضوح.

لقد أقرّها والدها كابنته حسب الأصول والوثائق التي تَشهدُ على ذلك محفوظة، جزء منها في مكتب السجلات العامة والآخر في منزله. وها هم هنا أمام عينيك. رجاءً قَدِّم الوثائق إلى أيميليانوس، دعهُ يتفحّص شريط الكتّان الذي يحمل الختم، دعهُ يتعرّف على الختم المطبوع عليه، لِيقرأ أسماء القناصلة لتلك السنة وليعدّ السنين، فقد أعطاها من العمر ستين. دعهُ يُفصِح عن المجموع عند خمسٍ وخمسين سنة حتى يعترف بأنه كَذِبَ وأعطاها خمسًا زيادة. كلا، بالكاد يكفي هذا. سأتعامل معه بسخاء أكبر فقد جاد على بودونتيلا بعدّة أعوام وها أنا ذا أجزيه بإعادة عشرٍ، فالمسكين ميزنتيوس ضلّ

الطريق رفقة يوليسيس. فليُثبت على الأقل أنها في الخمسين من عمرها، حتى نختزل الأمر كوني أتعامل مع متّهم اعتاد على الضرب في أربعة، سأضربُ خمس سنوات في أربعة وأطرح عشرين سنة بضربة واحدة، ولتأمر يا ماكسيموس بحساب عدد القناصل منذ ولادتها، إن لم أكن مخطئا، فستجد أنّ بودونتيلا بالكاد تجاوزت عامها الأربعين. الجرأة الصّلفة لهذا الافتراء! سيكون المنفى لعشرين سنة عقابًا جديرًا بهذا الإفك! بُهتانك أضاف نصفا كاملا للحاصل، وتلفيقك يُقدّر بمرة ونصفٍ من الأصل. لو قُلتَ ثلاثين سنة عوض عشر، لافترضناك قد زللتَ في الإيماءة المستخدمة في حسابك: أنك وضعتَ السبّابة على المفصل الأوسط من إبهامك بدلا من أن تجعلهم يشكّلون طوقا. ولكن في حين أن الإيماءة التي تشير إلى الأربعين هي أبسط هذه الإشارات - فكل ما كان عليك فعله هو مدّ راحة يدك - قُمتَ بزيادة الرقم بمقدار النصف مرة أخرى. لا مجال للخطأ هنا إلا إن كنتَ قد حَسِبت لبودونتيلا ثلاثين عاما، وحصلتَ على مجموعك بمضاعفة عدد القناصل.

90- لقد انتهيتُ من هذا. آتي الآن إلى صميم الاتهام، إلى الدافع الفعلي وراء استخدام السحر. لقد طلبتُ من روفينوس وأيميليانوس أن يجيباني ويخبراني - فرضا أني ساحرٌ من الطراز الأول - عن أيّ فائدة كنتُ لأجنيها من بودونتيلا حتى أدفعَها بعقاقيري وتعاويذي كي تتزوّج بي. إني أدرك جيدًا أنّ الكثير من المتّهمين بارتكاب جريمة ما، حتى وإن ثَبُتَ أنّ هناك دافع حقيقي لارتكابها، قد برّؤوا أنفسهم من الذنب بنحو مستفيض عبر خط الدفاع هذا: أنّ السجلّ الكامل لحياتهم يَصرِفُ عنهم كلّ مُريةٍ، ولو بوجود دافع قوي لارتكاب جريمةٍ فحقيقة وجوده لا تضعهُم موضع ريبةٍ، كما لا يجدر بنا أن نُسلِّمَ بحصول أمرٍ كان من المفترض حصولهُ، فما يُدرينا بما يَصرِفهُ الزمن ودروبهُ، بل نتأمّلَ في الرجل ما أوعزت به قريحتهُ، ونرى إن أدار قِبل الفضيلة أو الرذيلة وجههُ، حتى لا نُجرِم في حقّه بِجُرمٍ آخر ولا نُنصفهُ. كان بوسعي - اعتمادا على العدالة في منُتهاها - أن أضعَ في هذا الطرح كل ثقتي، لكني أتنازل لكم عن حقّي، وما كنتُ لأكتفي بهذه الحجّة البائسة إن لم أُبرىء ذمّتي بجلاءٍ من كل تُهمكم وأدرأ عن نفسي أدنى شُبهةٍ في

الشعوذة تحوم حولي. تأمّلوا أيّ ثقة في براءتي وأيّ احتقار تجاهكم يوحي به سلوكي. إن وجدتم سببا واحدا يحدوني لخطب ودّ بودونتيلا أملا في بعض المزايا لشخصي، أو أثبتّم أدنى ربحٍ غنمتهُ من زواجي، فأنا على استعدادٍ تامٍ لأكون أيّ ساحر ترتضون، كارميندراس العظيم[157] نفسه أو داميجيرون[158] أو موسى الذي سمعتم عنه أو جانيس[159] أو أبولوبيكس أو حتى دردانوس[160] أو أيّ ساحرٍ ذاع صيتهُ منذ عصر زرادشت وأوستانس إلى الآن.

91- أنظر يا ماكسيموس أيّ جلبةٍ أثاروا لمجرّد ذِكر بعض السّحرة بالاسم. ماذا أفعل مع قومٍ لا يفقهون شيئا ولا يعقلون؟ أأشرعُ في الإثبات لكم أني صادفتُ هذه الأسماء وأخرى كثيرة في سياق دراستي للكُتّاب المشاهير في المكتبات العامة؟ أم أجادل بأنّ معرفة أسماء السحرة شيء والمشاركة في فنّهم شيء آخر، وأنه لا يرقى لاعترافٍ بالجريمة أن يمتلكَ المرء عقلاً يفيضُ بالعِلمِ مِلؤهُ وذاكرةً لا تخونهُ؟ أو أتّخذ مسارا أفضل بكثير، مُرتكنا على واسع علمك ومعرفتك يا ماكسيموس، وأربأً بنفسي عن اتّهامات هؤلاء الأغبياء والجهلة الأجلاف؟ نعم هذا ما يجدرُ بي فعلهُ: سأرمي ظنونهم دَبر أُذني،

---

[157] كارميندراس العظيم. يشير بيكو ديلا مير اندولا في كتابه De hominis dignitate إلى عديد الملاحظات حول هذا الشخص، إذ وفقا للتعليق المدرج ل Reich، فإن كارميندراس هو نفسه الساحر كاروندراس، والذي يشير إليه بليني في Plin, Nat. 30.2 باسم تارمويندراس الآشوري.

- Giovanni Pico Della Mir Andola, De hominis dignitate Über die Würde des Menschen. Felix Meiner Verlag GmbH, Hamburg 1990. pp. 79-80.

[158] داميجيرون. أتى على ذكره كوينتوس سيبتيموس فلورنس ترتليانوس القرطاجي في مؤلفه 'عن الروح'

- Tertull, de Anima. 57.

[159] جانيس. كان رفقة جامبريس أعظم سحرة فرعون. عهدت لهما ابنة فرعون بموسى لتدريسه فن السحر في سن العاشرة، وهما نفسهما من اختارهما فرعون لمجابهة النبيّ موسى.

- Albert Pietersma, The Apocryphon of Jannes and Jambres the Magicians: P. Chester Beatty XVI (with New Editions of Papyrus Vindobonensis Greek inv. 29456 + 29828 verso and British Library Cotton Tiberius B. v f. 87). Edited with Introduction, Translation and Commentary. With Full Facsimile of All Three Texts. BRILL, 1 mars 1994. pp. 24-35.

[160] يذكر بليني في التاريخ الطبيعي أن ديموكريتوس كان أول من أشار إلى أبولوبيكس ابن كوبتوس 'مدينة قفط بمحافظة قنا بمصر' كواحد من أعظم السحرة عبر التاريخ، كذلك دردانوس الذي سعى لإيجاد أعماله بالنبش في قبره، وأنه كتب أعمالا بناءً على ما وجده هناك.

- Plin, Nat. 30.2.

وسأمضي قُدمًا في المرافعة التي باشرتُ بها وسأثبتُ بما لا يدع مجالا للشك أنه لم يكن لديّ أيّ دافعٍ لإغواء بودونتيلا للزواج باستخدام أشربة المَحبّة.

لقد تجشّم متهميّ عناءً كبيرا لازدراء عُمرها وجمالها بعباراتهم الجارحة، وشجّبوني على رغبتي في هكذا زوجةٍ بدافع الطمع في مالها وعلى استلاب مهرٍ كبير منها في غرّة زواجنا. لا أنوي أن أُجهدك يا ماكسيموس بِردٍّ طويل على هذه الأباطيل، فلا حاجة إلى الكلمات من طرفي وقسيمة الزواج بحوزتنا تتحدّث ببلاغة أكثر مني. سترى في تدبيري للمستقبل وأفعالي أنّ ما نمّ عن سلوكي في ذاك الوقت كان وفقا لما نصّت عليه القسيمة تماما، وأنّ ما نسبوه إليّ يعكسُ ما في ذات صدورهم من جشع. سترى أنّ مهر بودونتيلا كان زهيدا مقارنة بثروتها وأنه حُوِّل إليّ كأمانةٍ لا عَطِيّة، وأنّ الزواج قد وُثِّق فوق ذلك بشرط: أنه إذا ماتت زوجتي دون خَلفٍ مني، فعلى المهر البقاء عند ابنيها بونتيانوس وبودنس. أمّا إن تركت لي عند وفاتها ابنًا أو ابنةً واحدة، فعلى المهر أن يُقتسم بالتساوي بين نسل الزواج الأول والثاني.

92- وكما أشرت، سأثبت ما قلتُه من قسيمة الزواج ذاتها، فلعلّ أيميليانوس لا يكاد يصدّقُ أنّ المبلغ الإجمالي المسجّل هو 300.000 سيسترس، وأنّها تكفلُ حقّ استرداده لأبناء بودونتيلا. خذ السندات بيديك وقدِّمها لروفينوس الذي حرّضك على هذا الاتهام. فليقرأها، وليخجل بطبعه الأصْيد وشحاذته المتمادية. فقد أمهر ابنته هو الأحوج الأجرد بأربعمائة ألف سيسترس تسلّمها من مقرض، في الوقت الذي أمهرَتْ فيه بودونتيلا الثريّة نفسها بثلاثمائة ألف سيسترس للزواج برجلٍ أكبّ على ردّ أغنى المورثات، مكتفيا بهذا المهر التافه، مؤثرا زوجته دونه أصلا، معتبرا الحبّ والانسجام معها كنزهُ الأوحد بل كلّ ثروته. أيجرؤُ شخصٌ لديه أدنى خِبرةٍ في الحياة على تمرير أيّ استنكار إن دعت أرملة عوانٌ لها رواةٌ لا بأس به، بِطارفة عينٍ وظروف ميسورةٍ، رجلا شابا للزواج لا يُعاب هيئة ولا همّة ولا ثروة؟ فالبكر الحسناء وإن كانت فقيرة، تحتاج مهرا كبيرا مع أنها تأتي لزوجها بسجيّةٍ عفويّة، بسحر جمالها والشرف الذي لا تشوبه شائبة. فحقيقة كونها عذراء يُنظر إليها عن حقّ وجدارة من كل الأزواج على أنها أفضل خيارٍ، فما من شيء

تتلقاهُ كمهرٍ من زوجتك يمكنكَ متى شئت، لغاية في نفسك، أو هجران من طرفك، ردّه كاملا كما استلمتهُ: تدفع الأموال وتُرجعُ العبيد وتهجرُ البيت وتُخلي الممتلكات. البكارة وحدها يستحيل ردّها بمجرّد إعطائها، وهي الجزء الوحيد الذي يصادرهُ الزوج من المهر للأبد. أمّا الثيّب حين تنفصل عنك، فهي تتركك كأمس الدّابر، إذ لا تجلبُ شيئا لا يسعها استرجاعه، ثم هي بلا شك غير طيّعة لك في ما تريد، فهي تنظرُ بريبةٍ في منزلها الجديد، وهي نفسها تُثير الريبة بفعل افتراقها عن زوج سابق، فإن فقدتْ حليلها بفعل الموت فإن الفأل السيئ لِجَمعِها العاثر يجعلها غير مرغوب فيها، وإن تخلّصت منه بالطلاق فإن فيها عيبا من اثنين: إمّا أنها كانت شَموسا فطلّقها زوجها أو جِدّ وقحةٍ لدرجة تطليقه. لأسباب كهذه وأخرى تُقدِّم الأرامل مهرًا أكبر لجذب الخاطبين لهن، وما كان لبودونتيلا إلا أن تنسج على منوالهن لو لم تجد فيلسوفًا غير مُكترثٍ بمهرها.

93- فَكِّر في هذا الأمر. لو رغبتُ فيها بدوافع الجشع فما الذي سيكون أجدى في مسعاي لأتسيّد بيتها أكثر من بثّ الشقاق بين الأم وابنيها، وقَطعِ آصرتها بأبنائها فأنتبِذها بمعزلٍ عن ذويها ببالغ اليُسر ومطلق الاستئثار؟ هكذا يمكن أن يكون أليس كذلك، فِعلُ اللصّ الذي تدّعي أنني ذلك. والحال أني ركِبتُ في حقيقة الأمر كل صعبٍ وذلولٍ ابتناءً لأسانيد السكينة والألفة والوئام، وما تورّعتُ فحسب عن زرع عداواتٍ بل أخمدتُ تماما ما عَصَف بالبيت من غائلاتٍ. وفوق ذلك دعوتُ زوجتي - والتي استرطتُ آنذاك ثروتها بالكامل كما أكّد متهميّ - ألححتُ عليها وصولا لإقناعها عندما نشدَ أبناؤها استعادة الأموال التي تحدثتُ عنها آنفا بتسديد المبلغ كاملا دفعة واحدة في هيئة مزارع بقيمة بَخِسة وبالسعر المقترح من قِبلهم فضلا على التنازل عن بعض الأراضي الخصبة للغاية من ملكيّتها الخاصة، عن منزل شاسع مزخرف بأناقة وكميّةٍ كبيرةٍ من القمح والشعير والنبيذ والزيت وغيرهم من ثمار الأرض مع ما لا يقل عن أربعمائة من العبيد وعددٍ كبيرٍ من رؤوس الماشية القيّمة. أقنعتُها ختاما بالتنازل عن كل المطالب في الحصّة التي أعطتهُم إياها ولمنحهم آمالًا طيّبة في يوم آتٍ في ما تبقى من التركة. كل هذه التنازلات التي انتزعتُها من بودونتيلا بمشقّة وضدّ مشيئتها - أنا أحدّثُكم بعد إذنها عمّا حدث فعلا

- سلبتُها إياها بمناشدتي الملحّة رغما عن سُخطها وإعراضها. وهكذا أصلحتُ ما بين الأم وأبنائها وبدأتُ حياتي كزوج أُمٍ بإثراء هرليّ بمبلغ كبير من المال.

95- بلغ الأمر مسامع الجميع في أويا، وطاب ذكري على الألسن التي نالت من روفينوس. أتى بونتيانوس رفقة أخيه الأصغر لِعيادتنا قبل إتمام والدتهم لِعطيّتها. تَردَّى عند أقدامنا وناشدنا أن نغفر ونتغاضى عن جميع إساءاته السابقة ذارفا الدموع ومُقبّلا أيدينا ومُعربا عن ندمه للاستماع إلى روفينوس وأمثاله. كما أنه ترجّاني بكل احتشام أن أرفعَ عنه الحرج أمام الموقّر لوليانوس أفيتوس والذي كنتُ قد أوصيتُ به إليه قبل مدّة وجيزة عندما استهلّ دراسة الخطابة، فقد اكتشفَ أني كتبتُ إلى أفيتوس قبل بضعة أيام سردًا كاملاً لكل ما جرى. لبّيتُ له طلبه أيضا وأعطيتُه رسالة انطلق بها إلى قرطاج، أين كان لوليانوس أفيتوس الذي انتهت تقريبا فترة ولايته في انتظار وصولك يا ماكسيموس. ما أن قرأ رسائلي، هنأ بونتيانوس بالكياسة الراقية التي تميّزهُ دوما لأنه سارع بتصويب خطئه، وعَهِد إليه بردٍ. آه! يا لها من معرفةٍ! يا له من ذكاء! أيّ نعمة وسِحرٍ يكمنُ في ذلك الجواب! إلا 'رجل فاضل وخطيب' من يمكنهُ كتابتهُ. أنا أعلم يا ماكسيموس أنك ستلقي السمع إلى هذه الرسالة عن طيب خاطر. فإن سمحتَ بقراءتها فسألقيها بلساني. ناولني رسالة أفيتوس، فإن غمرتُها كلما حملتُها بإطرائي، ستبادلني اليوم بأكثر من ذلك إلى حدّ إبرائي! يمكنك السماح للساعة المائيّة بالاستمرار، لأني سأقرأ وأكرّر بكلّ سرور خطاب ذلك الرجل المتميز للمرة الثالثة والرابعة وإن تكُ تكلفة ذلك أيّ قَدرٍ من الوقت المتاح لي. (تتم قراءة الرسالة)

95- أنا أعلمُ أن الواجب يُلزمني بإنهاء خطابي بعد قراءة هذه الرسالة. أيُّ تزكيةٍ أكبر لشخصي، أيُّ شهادةٍ أوثق يمكن أن أقدّمها في نُصرتي، أيُّ دفاعٍ أكثر فصاحة أرتجيه في صفي؟ لقد أصغيتُ في مشوار حياتي إلى العديد من الرومان المصاقِع ولكني لم أُعجَب بأحدٍ هكذا بقدر أفيتوس. ما من أحد في رأيي يملك باعا في الخطابة أو ينشدُ نصيبا منها إلا وشاقه أن يَبلُغَ منزلة أفيتوس إن قارن نفسه به دون أَثَرةٍ وحسدٍ، فقد اجتمعت حوله كل الروائع المختلفة للخطابة. ما من خطاب يؤلّفه أفيتوس إلا وكان مثاليا تمامًا

وكاملا من جميع جوانبه لأن يُرضيَ كاتو بوقاره[161]، لايليوس بِرِقّته[162]، غراكيس بِحَيويّته[163]، قيصر بحَمِيّته[164]، هورتينسيوس بِنَسقه[165]، كالفوس بِمَغزاه[166]، سالوست بِتَدبيره[167] وشيشرون بِجَزالته[168]. بالمختصر المفيد، حتى لا أخوض في كل

---

[161] كاتو. من أعظم خطباء روما. يقول شيشرون: "بالنسبة لكاتو، أين ستجد خطيبا حديثا يترفّع عن القراءة له؟ كلا، بل عليّ القول، من ذا الذي لا يملك أدنى معرفة به؟ ومع ذلك، بحق الآلهة! يا له من رجل رائع ! أنا لا أتحدّث عن جدارته كمواطن، كعضو في مجلس الشيوخ وجنرال، بل علينا أن نحصر اهتمامنا بالخطيب. فمن ذا الذي فاقه وقارا كمادح؟ أو أشدّ منه صرامة كمتهم؟ أو أكثر براعة في مستهلّ أحاسيسه؟ أو أكثر إتقانا وبراعة في خطبه ونقاشاته؟ ومع أنه ألف أكثر من مائة وخمسين خطبة (والتي رأيتها وقرأتها) إلا أنها مكتظة بكل جمال اللغة والمشاعر".
- Cicero, Brutus. 65.

[162] لايليوس. وصف شيشرون أسلوب الخطابة لديه باللطف.

- Cicero, de Oratore. Book III. 7. 28.

[163] تيبريوس سيمبرونيوس غراكيس. اشتهر بخطبه النارية وطريقته في الإلقاء.

- Ibid., 56. 214.

[164] يقول شيشرون في بروتوس: "لكن قيصر، الذي كان يسترشد بقواعد الفن، قام بتصحيح عيوبٍ لعادة سيئة، بتبني قواعد وتحسينات جديدة، أين وجدها من حين لآخر تستعرض نفسها في غمرة محادثة مهذبة. وبناء على هذا الأمر، ومن أجل أنقى بلاغة في الخطابة، أضاف مختلف جواهر البلاغة بحيث يبدو أنه يكشف عن أفضل لوحة في أفضل وجهة نظر. وبما أنه يتمتع بهذه الميزة غير العادية حتى في الأسلوب العام للغته، عليّ أن أعترف بأنه لا يوجد شخص أعرفه، قد نسلّم له بالأفضلية عليه ...".

- Cicero, Brutus .261.

[165] يقول شيشرون في بروتوس: "لكن عبقرية هورتينسيوس برزت حتى في مقتبل شبابه، وكأنه واحد من تماثيل فيدياس، ما أن تراءت حتى أضحت موضع إعجاب الجميع. ألقى أولى خطبه في فترة قنصلية كراسوس وسكايفولا سنة 95 ق.م، والتي وجهّت إليه شخصيا، ومع أنه كان في ذلك الوقت يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا فقط، إلا أنه حضي بعبارات الاستحسان القوية إلى حدّ بعيد ليس فقط من الجمهور بشكل عام، ولكن من القناصلة أنفسهم".
- Ibid., p. 229.

[166] يقول شيشرون في بروتوس: "لكن دعونا نعود إلى كالفوس الذي ذكرناه للتو، الخطيب الذي تلقى تحسينات أدبية أكثر من كوريو، وكان لديه أسلوب بالغ الإتقان والدقة في الحديث، والذي قاده بذوق وأناقة رائعين ....".
- Ibid., p. 283.

[167] في تدبير سالوست، التاريخ ليس تدوين ما حدث، بل إجابة عن بلاغة ما حدث.

- Erik Gunderson, the Cambridge Companion to Ancient Rhetoric. Cambridge University Press, 9 juil. 2009. p. 221.

[168] شيشرون. من أعظم الخطباء في التاريخ. دُرّب في صباه على تقنيات الخطابة الرائجة آنذاك Genus Orationis Asiaticum، بعدها، Rhodian School على يد مولو سليلة هيرماغوراس، ثم طوّره إلى أسلوب Attic بتبنيه لأسلوب ديموستنس.

- Marcus Tullius Cicero, Cicero Pro Planco: Edited With Introduction And Notes By H W. Auden, M.A. MacMilian And Co. Limited, London 1897.

مزاياه: إن رَغِبتَ في سماع أفيتوس فلن ترغبَ في تقويم أيّ شيء بإضافة أو سحب أو تغيير ما يقوله. أنا أرى يا ماكسيموس بأيّ سرورٍ تستمعُ إلى سرد الفضائل التي تدركُ بأن صديقك أفيتوس يمتلكُها. ومع أنّ ابتهاجك دعاني لقول بضع كلمات عنه، إلا أني لن أتجاوز دماثتك لحدّ أن أسمح لنفسي ببدء خطابٍ عن فضائله الاستثنائيّة في هذه المرحلة من القضيّة، فهي توشك على النهاية وقد استنفذتُ قواي تقريبا. سأحتفظ على الأحرى بالثناء على مناقب أفيتوس ليومٍ يكون فيه وقتي متاحا وجسدي مرتاحا.

96- أمّا الآن فعليّ، وإن حزّ في نفسي ذلك، أن أنحرف لُزوما عن وصف رجل عظيم لمناقشة هذه الرّفقة الكريهة هنا. أتجرؤ إذن يا أيميليانوس على جعل نفسك ندًّا لأفيتوس؟ أتهاجم بِتُهم السّحر والفن الأسود من يصفه أفيتوس بالرجل الصالح، ويمتدحُ عريكته بكل حميّة في جوابه؟ أو دفعكَ سبب أكبر للاستياء بسبب شقّ طريقي تجاه منزل بودونتيلا بِصَرِيمة ونَهبِ خيراتها بأكثر ممّا أُتيح لبونتيانوس الذي في حضوري وحتى أمام أفيتوس في غيابي أعاد الأمور لنصابها بعدما نزغتَ بيننا بضعة أيام، وأعربَ عن عرفانه لي بالفضل في حضرة رجل عظيم للغاية؟ حتى وإن قرأتُ تقريرا عمّا حدثَ في حضور أفيتوس بدلاً من رسالته، ما الذي يوجد في المسألة بِرُمّتها ما يمكن أن يمنحك أنتَ أو أيّ شخصٍ غيرك عُروةً لاتهامي؟ إذ كان بونتيانوس يعتبر نفسه مدينا لي في المال المقدَّم له من والدته، ويبتهجُ في دخيلته بحظّه الجيّد لكوني زوج أمّه. آه! كم كنتُ آمل لو أنه عاد من قرطاج سالما معافى! أو طالما قضى القدر في أمره، كم كنتُ آمل ألا تُسمِّم حُكمه في النهاية! أيُّ امتنانٍ كان ليُعرِبَ عنه تجاهي إمّا بنفسه أو عبر وصيّته! ومع ذلك بالنظر إلى حال الأمور، فأنا أناشدك يا ماكسيموس - فلن يستغرق الأمر مطوّلا - أن تسمحَ بقراءة هذه الرسائل المليئة بعبارات الاحترام والمودّة تجاهي، والتي أرسلَ لي بعضا منها من قرطاج والبعض ممّا خطّه على مقربة في رحلة عودته إلى الوطن، بعضًا ممّا كتبَ وهو لا يزال يتمتّع بصحّته والبعض عندما تملّكه المرض بالفعل. هكذا يدرك شقيقه متّهِمي، كم خاب في دراساته أمام شقيقه طيّب الذكر. (تتم قراءة رسائل بونتيانوس)

97- أسمعتَ الألفاظ التي انتقاها أخوك بونتيانوس في حديثه عني؟ لقد دعاني بوالده، سيّده، معلّمه، ليس فقط في مناسبات مختلفة في حياته بل حتى في فراش موته. كنتُ لأفعل نفس الشيء بتقديم رسائل مماثلة تخصّك لو كنتُ أراها تستحقّ إضاعة ولو برهة من الزمن، لكني أفضّل أن تُعرَضَ وصيّة أخيك الأخيرة - حتى وإن كانت غير مكتملة - والتي خصّني فيها بأعظم عبارات البرّ والاحترام. لكن روفينوس لم يسمح أبدًا لهذه الوصيّة بأن تُصاغَ أو تُستكمَل بسبب استيائه من فقدان الميراث والذي رآه من منظور الجزاء السخيّ على أحضان ابنته طيلة الأشهر التي اعتُبِر فيها حمو بونتيانوس. فقد استشار من قبل بعض العرافين الكلدانيين[169] بشأن الرِبح الذي ستجلبه إليه ابنته التي رآها بمثابة استثمار، إذ تنبّؤوا كما أخبروني - ويا ليت شِعري ما صدقوا - بأنّ زوجها الأول سيموت في غضون بضعة أشهر، كما كانت بقيّة النبوءة التي تتحدّث عن الميراث مفبركة كالعادة لتناسب أمنيات زبائنهم. لكن روفينوس فغر فاه على فريسته عبثا، كوحش بريّ أصابه العمى. فما اكتفى بونتيانوس بحرمان ابنة روفينوس من الميراث بعدما اكتشف خسّتها، بل حَرمها حتى من ميراث محترم. فقد أورَثها من باب الإهانة كتّانا بقيمة 200 ديناري ليُظهر أنه لم يُسقِط اسمها سهوا أو إهمالا، بل قدّرها بهذه القيمة تعبيرا عن غيظه. وحدّد كورثة له - تمامًا كما في الوصية المذكورة سلفا والتي تمت قراءتها بصوت عالٍ - والدته وشقيقه، والذي، وهو مجرّد صبي، جلبَ من أجله روفينوس كما ترون، سلاحه القديم لتحريك الأمور: أنا أشيرُ إلى ابنته التي يدفعها إلى أحضانه على الرغم من أنها تكبرهُ سنا، وكانت إلى عهدٍ قريبٍ زوجة أخيه.

---

[169] اعتمد الكلدانيون في معتقداتهم الخرافية على علم التنجيم، إذ يقدّر أنهم أول من لاحظوا الأجرام السماوية بانتظام، ولذا أصبحت تسمية 'كلدانية' بعد ذلك مرادفة للفلكيين. أسّسوا بتأملاتهم علم التنجيم، واستخدموا مهارتهم المزعومة في هذا الفنّ، في ارتقاب المواليد والتنبّؤ بالحظ الجيد والسيئ وعديد الأغراض الأخرى.

- H. John Lewis, The Merits of Protestantism Demonstrated by the Character of Man: Embracing the Topography of His Residence at Various Periods of His Existence, from the Earliest Recorded Time to the Present Century, Volume 3. New York: Published and For Sale by C. Welford. No. 7 Astor House 1851. p. 52.

98- لقد كان بودنس جِدّ مُستَلبٍ وأهوسَ بمفاتن تلك العاهرة وبالكلمات الخادعة للدّيّوث والدها، لدرجة أنه ارتحل من فوْره إلى منزل عمّه بعد أن لفظ أخوه أنفاسه الأخيرة تاركا والدته. فقد عمدوا على قطع واشجتنا به حتى يتأتّى لهم القيام بالمخططات التي ابتدؤوها كون أيميليانوس يدعم روفينوس ويشتهي نجاحه. (حركة بين الجمهور) آه! طوبى لكم! أنتم تذكّرونني بحقّ أنّ هذا العمّ العزيز لديه آمال من الزجّ بنفسه في هذه القضية، لأنه دارٍ بأنّ هذا الصبي إن قضى نحبه دون وصيّة فسيكون وريثه بِحُكم القانون، أيّا كان من زاوية العدالة. ما كان هذا لِيُفلت مني أبدا، لو ما صدّني واجب التحفّظ دوما عن إفشاء الشكوك الصامتة والتي تخطر على بال الجميع. لقد أوقعتم أنفسكم في حيص بيص. لكن، أصْدِقنا القول إن كنتَ صدوقا، فقد تساءل الكثيرون عن المودّة المفاجئة التي بدأتَ تُظهرها يا أيميليانوس لهذا الصبيّ منذ وفاة شقيقه بونتيانوس، بينما كنت في السابق غريباً عنه لدرجة أنك فشلتَ مِرارا في التعرّف على وجه ابن أخيك ولو صادفته. لكنك الآن تتعاطى معه بأناة وتُفسده للغاية بتساهلك وتستجيب لكل نزواته إلى الحدّ الذي يجعل سلوكك أكثر إثارة للشكوك في شبهات تستند وبشدّة على مبرّرات قائمة. أخذتَه منا مجرّد صبي وسلّمته في الحال مقاليد الأمور. اعتاد تحت وصايتنا التردّد على الكُتّاب، أمّا الآن فقد قاطعَ الدراسة منذ أمدٍ بعيدٍ وجرفَ نفسه لملذات الحانة. يحتقر الأصدقاء الجادين ويقضي - صبي مِثلُه - جِنَّ شبابه في العربدة مع أكثر الشباب المنبوذ وسط العاهرات وأقداح النبيذ. يدير منزلك ويأمر عبيدك ويشرف على الولائم الخاصة بك. زائرٌ كثير التردّد على مدرسة المجالدين، وهناك - ما يجب أن يَبدُر من صبي ذي منزلة! - يتعلّم من القيّم على المدرسة أسماء المصارعين، المعارك التي خاضوها، الجروح التي تلقّوها. لا يتحدّث أبدا بِغَير البونيّة، ومع أنه يتلفّظ أحيانا بمفردة إغريقية ملتقطة من والدته، لن يقوم أو حتى يقدر على الحديث باللاتينية. استمعتَ قبل فترة وجيزة يا ماكسيموس وأصغيتَ لابن زوجتي - يا للعار! - شقيق ذلك الشاب البليغ بونتيانوس، بالكاد استطاع التلفّظ بمقطع واحد عندما سألتَه إن أعطته والدته هو وشقيقه الهِبات التي أخبرتكم للتوّ بأنها وهبَتْهم إياها بِجُهد جهيدٍ مني.

99- ولذا فأنا أدعوك يا كلوديوس ماكسيموس، وأنتم يا حضرة مستشاريه، وأنتم الذين تقفون معي في هذه المحكمة، لتشهدوا على أن دنيّة هذا الصبيّ في الأخلاق تُعزى إلى عمِّه هذا، ولذاك المرشّح لشرف مصاهرته، وأني سأعتبرها ابتداءً من اليوم نعمة أنّ مثل هذا الابن قد رفع عبء الإشراف عليه من أكتافي، وأني لن أشفع له من الآن فصاعدا مع والدته. فقد ناضلتُ مطوّلا في الآونة الأخيرة حتى أثني بودونتيلا التي كانت تكتب وصيّتها بعدما تدهورت حالتها برحيل ابنها بونتيانوس عنها، حتى لا تَحرِم هذا الصبيّ من حقّه في الميراث بسبب الإهانة والجروح الفظيعة التي أثخنها بها. ناشدتُها بأقصى قدر من الجدِيّة لإسقاط ذلك البند الخطير، والذي، وأنا أُشهد الآلهة على قولي، خطّت بالفعل كل كلمة منه! بل بلغ بي الأمر حدّ تهديدها بهجرها إن رفضَت المثول لالتماسي وتضرّعتُ لها أن تمنحني هذه المِنّة حتى تغلب إساءة ابنها بالإحسان وتعفيني من كل البغضاء التي ستنجم عن فِعلِها. فلم أكفّ عنها حتى امتثلت لما طلبتهُ منها. أسفي على نفسي وما فعلت، فقد كان عليّ أن أصقل طريق أيميليانوس بنفسي وأعرض عليه دربا للثروة ما كان ليخطر على باله أبدا. لاحظ يا ماكسيموس، شاهد كيف ارتبك لدى سماعه بالأمر، أبصر كيف يهوي بعينيه أرضا. ما كان يتوقّع هذا الأمر مطلقا، إذ كان يدري بتأثّر زوجتي بسلوك ابنها الوقح، وتعلّقها بي على تفانيّ وإخلاصي. وكان سببٌ آخر يدفعه أيضا للتوجّس مني: فلا أحد حتى وإن كان مثلي أسمى من أن يطمعَ في الميراث، يأبى رؤية عقاب هرلٍ عاق كهذا. لقد قادهم الجزع قبل كل شيء لاتّهامي، وساقهم شُحّ أنفسهم للتخمين خطأ بأن كل الميراث قد تُرِك لي. ومادام الأمر يتعلّق بالماضي، سأضع حدا لكلّ هواجسكم. فما زعزعتني فتنة إثراء نفسي والانتقام لها على حدٍّ سواء، لعلمكم أني زوج الأم، خاصمتُ من أجل ابن زوجتي العاق والدته بقدر ما يمكن للوالد خصومة زوجة الأب لمصلحة ابنٍ من صُلبه، بل ما كنتُ لأشعر بالرضا وبإحساس مفرط بالعدل والإنصاف إلى أن كبحتُ كَرم زوجتي السخيّ تجاهي.

100- سلّمني الوصية التي خطّتها الأم لابنها الجاحد، فقد دفعتُ بنفسي، أنا اللصّ الذي يزعمون، كل كلمة منها بمناشدتي واستعطافي. أُؤمر بأن تُفتح الصفائح يا ماكسيموس،

ستجد ابنها هو وريثها، وأني لا أحصل على شيء عدا إرثٍ تافهٍ أُدرج من باب الرمزيّة، حتى لا يغيب اسمي - كوني زوجها - عن وصية زوجتي إن حدث وأن سلّمت أمرها لعلّة ما. خذ وصية أمّك. أنتم على حق فهذا يعتبر نكرانا، بحرمان زوجها الذي كرّس نفسه لخدمتها لتوصي بكلّ الميراث لابن مناوئ لها؟ بل ولم يكن حتى ابنها الشخص الذي عهِدتْ له بكلّ ثروتها، بل تخلّت عنها بالأحرى للجشِع أيميليانوس والى العرّاب روفينوس وتلك الشرذمة من السكارى التي تحوم حواليك وتقتات منك. خُذها يا خيرة الأبناء! ضع جانباً رسائل أمك الغرامية واقرأ وصيّتها عوضا عن ذلك، فإن كَتبتْ أيّ شيء آناء فقدانها لصوابها ستجده هنا. 'ليكن ابني سيكينيوس بودنس هو وريثي'. أنا أقرّ بذلك! من يقرأ هذا سيعتبرهُ ضربا من الجنون. أوريثك هذا الابن الذي حاول في مأتم شقيقه طردك خارج البيت الذي أعطيتِه له بنفسك بمعيّة عصابة من أراذل الشباب، والذي ضاقت نفسه بجعلكِ من أخيه شريكة له في الميراث، والذي سارع إلى هجرك حين قطّع الحزن والحداد نياط قلبك وناصَ إلى أيميليانوس وروفينوس عن حضنك، والذي وضعك موضع إهانة بما قاله بنفسه وبما لفّقه بعون عمه، والذي جرّ اسمك إلى محاكم القانون، والذي حاول صراحة ودون تحفّظ استخدام رسائلك للقدح في عرضك، والذي وجّه تهمة عقوبتها الإعدام للزوج الذي اجتبيتِه وكنتِ - كما عاب عليك بودنس بنفسه - مجنونة بحبّه! افتح الوصية يا بني الطيّب، افتحها أرجوك. فبذلك سيكون أسهل عليك إثبات جنون والدتك.

لِم ترتدّ عائدا؟ لِم ترفض النظر إليها وقد تحرّرتَ من كل هاجسٍ حول ميراثك من ثروة أمك؟

101- قد يفعل ما يحلو له يا ماكسيموس، أمّا من جهتي فأنا ألقي هذي الألواح قِبل قدميك وأدعوك لتشهد أني لن أبالي إطلاقا بما قد تكتبهُ بودونتيلا في وصيّتها، فبوسعه أن يتقرّب بنفسه من والدته في قادم الأيام، فقد حال دون أن أترافع من أجله مجددا. هو الآن رجل ووليّ أمره، فليملي بنفسه بنود وصيّة غير مستطابة على والدته وليصرف غضبها بعيدا. فالذي يُرافع في المحكمة، بوسعه الترافع مع والدته. أنا أكثر من راضٍ لا

لمجرّد نسف الاتهامات التي طالتني، بل لأني استأصلتُ تماما ذلك الحقد المشحون في التهمة التي استندت عليه المحاكمة بأكملها، وهي محاولة تأمين الميراث لنفسي.

سأكشف بدليلٍ قاطعٍ زيف تلك التهمة الأخيرة قبل أن أختم مرافعتي، فأنا لا أرغب في تجاوز أيّ شيء في صمت. لقد أكّدتُم أني اشتريتُ مزرعة فاخرة للغاية باسمي، ولكن بمبلغ طائل من المال يخصّ زوجتي. أنا أصرّح بشراء عقار صغير من بودونتيلا وباسمها مقابل 60.000 سيسترس ولم أكن شاريه أنا، وأنّ اسم بودونتيلا في صكّ البيع وأنّ المكس على الأرض يُدفع باسمها. يحضر بيننا في المحكمة المحترم كورفينوس سيلير وهو الجابي الذي تدفع له الضريبة، يحضرُ أيضا الوصيّ على زوجتي والقيّم على منزلها كاسيوس لونجينوس وهو شخصٌ أصيلٌ كريم المحتد، أذكرهُ بكل وقار. سله يا ماكسيموس عن الصفقة التي كُلِّف بتسويتها؟ وعن قيمة المبلغ التافه الذي اشترت به هذه السيّدة الثريّة عقّارها الصغير. (كاسيوس لونجينوس وكورفينوس سيلير يقدّمان الدليل)

هل الأمر كما قُلت؟ هل ورد اسمي في أيّ موضع من صكّ البيع؟ هل على الثمن المدفوع مقابل عقار تافه كهذا أن يدفعَ أحدا للتحامل عليّ؟ بل هل أدركتُ من زوجتي نوالاً ولو بقيمة تافهة كهذه؟

102- ما الذي تبقى يا أيميليانوس ولم أدحضهُ في رأيك؟ ما الذي كنتُ لأناله من سحري حتى يقودني في محاولة الظفر ببودونتيلا لاستخدام أشربة المحبة؟ ما الذي غنمتُه؟ مهر زهيد بدلا من آخر كبير؟ عجيبٌ أمر تعاويذي! بأن توصي بمهرها لأبنائها بدل ائتمانه في حوزتي؟ أيّ سحر يفوق هذا؟ أأن تَعرضَ بإلحاحي معظم ملكيّتها على أبنائها دون أن تترك لي شيئا على الرغم من أنها لم تبدِ تجاههم أيّ سخاءٍ قبل زواجها بي؟ أيّ إساءة هذه لأشربة المحبة! أو ربما كان من الأجدر أن أسمّيه جودا لم يقطف ثماره! أأن تجعل في وصيّتها التي أعدّتها في نوبة من السخط الشديد تجاه ابنها، نفس الابن الذي تخاصمت معه وريثا لها، بدلاً مني أنا الشخص الذي كانت تحبّه! أأن أُقنعها بشقّ الأنفس وبالرغم من تعاويذي على فعل هذا الأمر! تصوّروا أنفسكم لا تترافعون في

قضيّتكم أمام رجل يتمتّع بأقصى قدر من الإنصاف والعدالة الراسخة مثل كلوديوس ماكسيموس، بل أمام قاض منحرفٍ ومتعصّب ينحاز بطبعه للمتّهِم وكان مستعدا تماما لإدانة المتّهَم! امنحوه مجرّد أثر يتبعه! امنحوه أدنى فرصة معقولة للحكم في صالحكم! لفّقوا شيئًا ما على الأقل، ابتكروا بعض الإجابات الملائمة على ما يُطرح عليكم من أسئلة. ما دام كل تصرّف يستوجب وجود دافع ما، أجيبوني على هذا: تقولون إنّ أبوليوس حاول التأثير على قلب بودونتيلا بطلاسم سحرية، أجيبوني! ما الذي ابتغاه منها بإقدامه على هذا الأمر؟ هل أفتُتِن بجمالها؟ أنتم تنفون ذلك! هل اشتهى ثروتها؟ الدليل في قسيمة الزواج ينفي هذا، الدليل في سند العطيّة ينفي هذا! الدليل في الوصيّة ينفي هذا! هو لا يبيّن أني كبحتُ كرم زوجتي فحسب، بل إنّي صددته بحدّة نوعا ما. أيّ دوافع أخرى يمكنكم أن تتذرّعوا بها؟ لم لا تنطقون؟ لم هذا الوجوم؟ ما الذي أصاب تلك الجسارة التي افتتحتم بها لائحة الاتّهام والتي صيغت باسم ابن زوجتي؟ 'أيها الموقّر ماكسيموس، هذا هو الرجل الذي عزمتُ أن أتّهمه أمامك'.

103- لماذا لم تُضِف 'من أتّهمه هو معلّمي، زوج أمي وشفيعي عندها؟'. لكنك انتهجت دربا آخر في ذلك؟ 'هو مذنب بأكثر أعمال السحر وضوحا وتعددا'. قدِّم واحدة من أعمال السحر هذه على الأقل أو بعض الحالات المشكوك فيها من هذه التي تصفها بالفاضحة. بل شاهد إن لم تَسِعني كلمتان لنسف كلّ اتّهاماتك: 'أنت تنظّف أسنانك' النظافة مبرّرة. 'أنت تنظر في المرايا' حريّ بالفلاسفة. 'أنت تكتب نُظُما' أمر مباح. 'أنت تفحص السمك' اتّبع أرسطو. 'أنت تعبد قطعة من الخشب' كذلك أفلاطون. 'تزوّجتَ امرأة' التزم بالقانون. 'إنها أكبر منك' أمر شائع. 'تزوجتَ من أجل المال'. خذ الصداق، تذكّر العطيّة، اقرأ الوصيّة!

إن دحضتُ كل اتّهاماتهم كلمة بكلمة، إن نسفتُ بكلّ افتراءاتهم، إن كنتُ بعيدا عن كل شبهة، إن انتفلتُ مما أشيع من تُهمٍ في السّتر والعلن، إن لم أفعل ما يضرّ بشرف الفلسفة والتي هي أعزّ عليّ من سلامتي، بل أصبت بالعكس ورك وفخذ خصمي وقهرته في كل النقاط، إن كان الصواب خَدِين حججي فأنا أرتقب تقديرك لأمري بقدر الثقة التي

أضعها وأنا أترقّب منك ممارسة سلطتك. فإنه لأهون عليّ وأخفّ ضيرا أن أُدان من البروقنصل على أن أتكبّد إدانة رجل بمثل فضلك واستقامتك.